الجمهورية العراقية
وزارة الأعلام

مديرية الثقافة العامة
سلسلة القصص والمسرحية
٢٠

في مدار الزمن

الياس قنصل



في مدار الزمن

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام

مديرية الثقافة العامة
سلسلة القصص والمسرحية
(٢٠)

في مدار الزمن

الياس قنصل

دار الحرية للطباعة
مطبعة الجمهورية
بغداد ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م

بلاد الذهب

**« هكذا شق المهاجرون القدامى
طريقهم الى ثرواتهم الحالية »**

اهذه اميركا ؟

اهذه أرض الذهب ؟

اهذه البلاد التي كنت أحلم بها ، وامني بالوصول اليها ، والتمتع بما نهديه الى قاصدها من سعادة لا حد لها ؟

اين الاوراق المالية المنثورة في شوارعها ؟

اين طرقاتها المسبوكة من الليرات ؟

اين الناس الذين يرحبون بالقادمين ، ويفرشون لهم الحرير والمخمل ؟

اين ؟ اين ؟

كلا ، لا يمكن ان نكون في اميركا

هذه المدينة شبيهة بدمشق وبيروت

ان قبطان الباخرة ضل الطريق ـ ولاشك ـ فبلاد الذهب لا تزال امامنا . وهذه المحلة التي نزلنا فيها ليست العاصمة الاميركية .

ان العاصمة التي سمعتُ عنها عجائب ، تختلف ..

وقطع عليه مجرى خواطره صوت عمه يناديه الى العشاء ، فالتفت اليه ، وقال :

– لا اشعر برغبة في الاكل .

فقال عمه :

– تعال ، ورافقني . لم تشأ ان تتناول الغداء الظهر ، وانت الآن تمتنع عن الطعام ، افصائم ام تحس بوجع ؟

فقام الفتى صاحب الخواطر السابقة من مكانه وقسم قطعة من الخبز ، فوضع في قلبها نتفة من الجبن ، وعاد الى جلسته وسبح من جديد في بحر من الهواجس متلاطم الامواج .

ورجع الزمان القهقرى .

منذ ثلاثة أشهر كان من اسعد الخلق .

كانت حياته تسير هادئة مطمئنة في بلدته في الوطن .

كانت امه – وهو يتيم الاب – تعتني به عناية فائقة ، واخته – وهي تكبره سنتين – بمثابة ام صغيرة له .

كان يقضي نصف نهاره الاول في المدرسة ، فاذا عاد الى البيت اتم فروضه ، وحلا له الجو في الساعات الباقية ، فاما ان يذهب الى دار رفيق له للعب ، واما ان يأتي الى داره رفيق له .

ولم تكن ايام الاعياد تفرق عن غيرها الا بأنه غير مضطر للذهاب الى المدرسة ، وبأن امه كانت تقدم له بضعة غروش « خرجية » يبذلها على مشتري « القضامة » او « الفستق » او ما شابه ذلك من الحلويات التي يتقاسمها مع رفقائه .

اما ثروه العائلة فمؤلفة من الدار التي يقيمون فيها وهي مبنية على طراز حديث بالسبة الى سواها ، ومن حقـل فسيح في مكان خصب من البلدة ، كانت الام « تضمّنه » كل سنة بمقدار لا بأس به من الغلة والدراهم يكفي المصاريف التي تطلبها حياة العائلة •

ولم تكن هذه الثروة ــ اذا صحّ تسميتها ــ ثروة قديمة العهد ، فقد حازها منذ سنوات قليلة والد الفتى المذكور بعد عودته من اميركا •

وكان الوالد هذا مضرب المثل بالنشاط في البلدة ، اذ استطاع ان يجمع خلال عشرين شهرا قضاها في بلاد الذهب مالا غزيرا •

ولكن القدر الذي يأبى ان يدير كؤوس السعادة صافية على احد ، عكـرها على الرجل في الرشفات الاولى ، فما كاد يستقر في البلدة حتى اصابه مرض عضال ــ اصله من اميركا ــ الزمه الفراش مدة طويلة ، ثم قضى نحبه •

وتقدم لخطبة الام الارملة كثيرون ، فردّتهم قانعة بعيشها •

وبلغ ابنها عامه الرابع عشر •

وجاء يوما عمه ، وسألها عن المستقبل الذي تنوي ان تعده لفلذة كبدهـا •

فاجابته انها لم تفكر في الامر بجد ، منتظرة ان ينهي علومه في المدرسة •

فاطلعها على نيته ، وهي السفر الى اميركا ، وعرض عليها ان يصطحب ابنها معه •

فرفضت اول اول ، فراح يزيّن لها هذه الفكرة ، ويؤكد لها ان لا مستقبل للولد في الوطن ويقدم لها الامثلة من الذين سافروا الى اميركا ،

وما جنوه من المال ، وفي طليعتهم المرحوم زوجها ، ووعدها بان هذه السفرة لن تطول اكثر من سنتين .

وعاد اليها في اليوم الثاني ، وفي اليوم الذي تلاه ، وما برح يرسم لها الآتي بألوان زاهية الى ان قبلت .

وركض العم فاخبر ابن اخيه .

ففرح الفتى ، وحسده رفقاؤه على حسن طالعه ، وتمنوا لو كانوا مكانه .

وباعت الام عدة « قصبات » من الحقل لتدفع « الناولون » .

وانتهت الاستعدادات .

وسافرا

ولم يستطع الفتى ان ينسّق خواطره الا بعد ان أصبح بينهما وبين اميركا يوم واحد ، فقد شغله الدوار عن ذلك وظهرت للمسافرين العاصمة من البعيد

واقتربت الباخرة من المرفأ

فمضى الفتى يتطلع الى الناس منتظرا ان يكون هو وعمه موضع الاهتمام ، فلم يبال بهما أحد

وتناول العم الكيس الكبير ، وفيه ثيابهما ، وحمل الفتى الكيس الصغير وفيه بقايا الزاد ، ونزلا السلّم وخرجا من دائرة الكمرك بعد تأدية الفحص الرسمي ، ولم يحفل بهما احد

ولم يشأ الفتى ان يكون متشائما كل التشاؤم ، فسأل عمه :

ـ الى اين ؟

فأجاب :

ـ على بركة الله ، تعال نبحث عن ابن عرب

فقال الفتى :

ـ وكيف نجده بين هذه الخلائق ؟

فلم يلقِ عمه باله الى هذا الاعتراض

وسارا في الشارع الذي بدا امامهما ، والعم يتفحص الوجوه ، يريد ان يسبر غورها

وظهر له وجه ، فوقف صاحبه بيده ، كأن بينهما معـرفة قديمة ، فتخلص الرجل منه بعنف ، وتجعدت تقاسيم محياه غضبا ، واندلع لسانه بعبارات لم يفهمها العم ولا ابن اخيه ، وان كانا قد حزراها تقريبا

فقال العم سترا لخجله :

ـ حسبته ابن عرب

ورفع الكيس الى كتفه ، ومشى

ولاح لهما من البعيد شرطي يدير حركة السير ، فصاح العم صيحة الفرح :

ـ الله من غباوتنا ما اشدها . ان « العسكري » مضطر الى ارشادنا ، ففف هنا ريثما اسأله

واسرع اليه فحياه تحية عسكرية ، وراح يحاول افهامه ما يقصد ، وكان الشرطي يقلب شفته جهلا ، فيعود العم الى الكلام باللغة العربية ، فيهز « حافظ الامن » رأسه كمن فهم ، ثم يقلب شفته

ويظهر انه ادرك اخيرا ما يود المهاجر ، فمد كفه مشيرا بمتابعة السير ، وطوى ثلاث اصابع من يده ، وبسط زنده الى اليسار ، واعلن وجهه انتهاء المقابلة

فرجع العم الى حيث ترك الكيس . وقال لابن اخيه :
ـ اذا صدق ظني ، فعلينا ان نمشي ثلاث مربعات ثم نعطف الى اليسار وفعلا

استرعى انتباههما في منتصف الشارع محل صغير يبيع صاحبه صورا ومسابح

فقال العم :

ـ لقد وصلنا ، هذا ابن عرب

فقال الفتى :

ـ اسأل انت

ودخل ، وكان ظنه صادقا : ان صاحب المحل ابن عرب

وعرض عليه العم ـ بعد التحية ـ حالته وحالة ابن اخيه ، فقال :

ـ كنت اتمنى من صميم فؤادي لو استطيع ايواءكما ، فهذا المكان الضيق تراه هو « دكانتي » ومنامتي ومطبخي معا ، وتوقف عن الكلام قليلا ، واستجمع خواطره ، ثم ابتسم ابتسامة سريعة ، وقال :

ـ الآن ذكرت ما كنت ناسيا ، لي صديق يستأجر دارا واسعة ، فيها غرف للكراء

ودلّه عليها

فسار يرافقه ابن اخيه

ووفقهما الله ، ووصلا

واستقبلهما صاحب الدار استقبالا حسنا ، وعرض عليهما اختيار غرفة من الغرفتين الفارغتين في داره

وكانت الغرفة الاولى في الطابق الارضي ، وهي واسعة واجرتها عشرون ريالا في الشهر

اما الغرفة الثانية فهي في الطابق الاعلى يفضي اليها درج ضيق ملولب يهتز من أوله الى آخره متى داسته قدم ، واجرتها عشرة ريالات

فقال العم :

ـ اننا نفضل الغرفة العالية على ضيقها ، فكل رأسمالنا نصف ليرة انكليزية ، ومتى يسرها الله وأصبحت لدينا كمية من المال استأجرنا الغرفة الاكبر . ما العمل لنحول هذه القطعة الذهب الى ريالات ؟

فأجاب صاحب الدار :

ـ ان الليرة الانكليزية تساوي عشرة ريالات . هات ما معك وهاك صرفتها

واستلم العم خمسة ريالات كل ورقة ريال وشرع يتأملها ، ثم سلمها الى ابن اخيه ليطلع عليها

وصعدا الى مقرهما الجديد ، الخاوي الا من الهواء

ونزل العم ، فاشترى بواسطة صاحب الدار خبزا وجبنا ـ وهو ارخص مأكول ـ ودعا ابن اخيه ، فأبى بحجة انه غير جائع

والحق ان خيبة آمال الفتى هي التي منعته من الاكل ، فقد كان يحسب اميركا شيئا ، فاذا هي شيء آخر مختلف كل الاختلاف

وجلس على الارض ، واسند رأسه على الجدار ، واغمض عينيه

وقرر العم ان يبقيا ذلك النهار في الدار للاستراحة ، وفي اليوم الثاني يشمران عن سواعد الجد ويخوضان ميدان العمل .

وحان ميعاد العشاء

فبسط العم الزاد ـ الخبز والجبن ـ ونادى ابن اخيه ، فأجابه :

ـ لا اشعر برغبة في الاكل

فقال عمه :

ـ تعال ورافقني لم تشأ ان تتناول الغداء ، الظهر ، وانت الآن تمت
عن الطعام ، افصائم ام تحس بوجع ؟

فقام الفتى ، وقسم قطعة من الخبز ، فوضع في قلبها نتفة من الجبن

* * *

وصعد الى غرفتهما صاحب الدار ، وكرر السؤال عن حالة البلاد التي غادراها ، وابدى حنينه اليها ، فقد انقضت عليه خمسة اعوام في اميركا ، وهو لا يزال مكانه من الثروة التي ينوي ان يجمعها

واغتنم العم الفرصة ، وسأله عن كيفية الابتداء بالعمل ، فأجابه :

ـ اذا احببتما ، ففي امكانكما ان ترافقاني صباح الغد ، فاني لا ابرح اتعاطى نفس المهنة التي تعاطيتها ، النهار الاول الذي وطأت فيه قدماي هذه البلاد

وقاربت الساعة العاشرة مساء ، فقال صاحب البيت :

ـ لاشك انكما تعبان من السفر ، فاستريحا الى الغد • اليس معكما ما تمدانه على الارض للنوم ؟

فسكتا

فعاد الى القول :

ـ ليس عندي غير « شرشف » عتيق من الصوف ، سآتي به اليكما لتحولاه الى فراش حتى تدبرا حالتكما

وجاء به بعد دقائق ومعه عدة قطع قصيرة من الخشب ، فقال وهو يبتسم ابتسامة الخجول :

ـ واستعملا هذه القطع وسادة • اصبحتما على خير

وبسط العم الشرشف ، ومهد قطع الخشب ، وهو يردد :

ـ لا يفتأ في الدنيا أولاد حلال

واخذ يخلع ثيابه للنوم

وجاراه ابن اخيه

واطفأ النور

ونام العم

اما الفتى فادار وجهه الى جهة الجدار ، واخذ يبكي بكاء صامتا لئلا يشعر به عمه

* * *

واستفاق العم في الصباح الباكر ، فايقظ ابن اخيه بلطف وهو يقول:

ـ اجلس يا « نبيه » ولنتكل على الله

وسكت دقيقة ، وتابع :

ـ لو كان عندنا أدوات طبخ لأعددنا فنجان قهوة

فقال نبيه :

ـ لا بأس

واطل صاحب الدار من الفسحة السفلى ، وقال :

ـ انزلا

وتبعاه

وقال أثناء الطريق :

ـ من المناسب ان ترافقاني في عملي عدة ساعات ، لتقتبسا مني الدروس الاولى

فشكره العم

ودخلوا جميعا الى محل تجاري ، فاشترى صاحب الدار عشرين « منشفة » قطنية وادّى ثمنها عشرين ريالا واشار الى رفيقيه بالخروج ، وسبقهما مرددا :

– يا فتاح ، يا رزاق ، يا مقسم الارزاق !

وركز المناشف على كتفه ، وامسك واحدة بيده ، وما ابتعد عن المحل قليلا ، حتى اخذ يصيح مناديا على بضاعته وهو يلقن بين الحين والآخر لحنه لمرافقيه

وكان ، متى شاهد امرأة واقفة على باب دارها ، اسرع اليها ، وعرض عليها المنشفة ، فكانت واحدة ترده ، وثانية لا تلتفت اليه ، وثالثة تعرض عنه ، ورابعه تساومه بها •

وكان اذا اعترض سبيله أي سائر ، ولدا كان أو شيخا ، انيقا أو غير انيق ، حاول ان يبسط امامه ما يحمل

وشرح لرفيقيه نظرته في الحياة قائلا :

– هده اميركا ، وهذه التجارة فيها ، لو كانت كل امرأة اعرض عليها « مناشفي » تشتري مني ، لأصبحت من الاغنياء في شهر واحد • ان ثمن المنشفة ريال واحد ، وأنا أبيعها بريال وربع أو بريال ونصف ، فيكون ربحي اخر النهار خمسة ريالات أو ستة أو عشرة • وأحيانا لا أبيع غير اربع مناشف أو خمسا ، فيكون ربحي أقل • وقد وفقني الله يوما واحدا فقط فبعت دفعة واحدة عشرين منشفة ، ثم عدت فاشتريت مثلها ، وبعتها في نفس النهار • وفي مكنة الانسان ان يزيد على صنف المناشف أصنافا اخرى ، فيضطر الى حمل سلّة من القش فيها « الخردوات » • والارباح اذ داك لا تزيد عن هذه كثيرا • وبيع المناشف أخف وارشق وانظف

وانىرف ، ولا يحتاج الى رأسمال كبير ، فانتما مثلا معكما خمسة ريالات لخمس مناشف ، تتقاسمانها ، ومن باع حصته عاد فاشترى غيرها ، ولا تخافا من الضياع ، نسأكتب لكما عنوان الدار ، ومتى اردتما العودة اليها ، فما عليكما الا ان تطلبا من أي سائر ان يرشدكما اليها • بقيت قضية ، احب ان الفت نظركما اليها ، وهي ان تهربا من المفتش الذي يطالبكما بالرخصة ـ رخصه البيع ـ من البلدية

فسأله العم :

ـ اليس من السهل احراز الرخصة ؟

فقال الرجل :

ـ ليس ذلك صعبا • عليك ان تدفع عشرة ريالات في الشهر سلفا

فسأله نبيه :

ـ واذا التقينا به ؟

فقاطعه مجيبا :

ـ يأخذ البضاعة التي معكما ، واذا ابديتما مقاومة نادى الشرطي فاعتقلكما • اطمئنا ، فقد مرت عليّ مدة طويلة في هذه البلاد ولم التقِ به سوى مرتين ، واخذ مني ثلاث مناشف في المرة الاولى ، اما المرة الثانية فاستطعت الفرار ولم يلحق بي • وعلاماته الفارقة انه رجل طويل نظيف اللباس ، على عينيه نظارتان ، طقمه رمادي ، ولن يحدث الا ما قدر الله ، فلا تخشيا

ولم يكتفِ الرجل بهذه الارشادات الثمينة ، بل اطلعهما على العملة الدارجة ، واوصاهما بان يفحصاها جيدا لئلا يخدعهما خادع بالاوراق المالية الزائفة او بعملة غير دارجة

وحان الظهر ، فقال :

ـ انتما في ضيافتي اليوم

فحاول العم شكره على هذا الكرم ، فاسكته بقوله :

ـ اذا لم نكن نحن بعضنا لبعض ، فمن لنا ؟

ومشى صاحب الدار ، وقد عدل عن المناداة على بضاعته ، ورفيقاه وراءه وقطع بهما عدة شوارع الى ان لاحت له من البعيد « مخبزة » فدخل ودخلا ، واشترى كيلو ونصف من الخبز ، والتفت الى رفيقيه قائلا :

ـ تعجبني هذه المخبزه لان ميزانها راجح ، وهذا الكيلو والنصف من الخبز لو كان في غيرها لأخذوا منه هذا الرغيف الصغير

وظل يسير بهما عدة شوارع الى ان قابل محل فواكه ، فولجه وراح يتامل ما فيه ، كأنه مفتش مسؤول ، ثم تناول عنقودا من الموز ، سائلا عن سعر الدرينة . فلم يعجبه الثمن

وغمز لرفيقيه ، فخرجا معه ، وقال حين أصبح في الطريق :

ـ ان صاحب هذه الدكان لص ، هو يريد نصف ريال ثمن دزينة الموز ، وفي كل مكان تباع بربع ريال . لعله ظنني « غشيما » . هلم فلنذهب الى غيره

ووقعوا على دكانة أخرى ، واشترى منها صاحب الدعوة دزينة من الموز ، ووضعها تحت ابطه متحولا بضيفيه الى ساحة عمومية لم تكن بعيدة ، فاختار شجرة ذات أغصان وارفة مدت فيئها على مكان من الارض يتسع لثلاثة جالسين وقال :

ـ هذا مكان لائق

وجلسوا

وبسط الغداء : الخبز والموز ، وطلب منهما ان يأكلا بلا خجل ، واعتذر عن هذه الدعوة البسيطة ، وقال وهو يطرح قشرة موز ، بعيد اعنه :

ـ اني لا احب الاكل في الفنادق ، فلا يعلم الآكل ما يقدمون له ، وقد يكون طبيخا بائتا فيه الضرر ، فضلا عن ان الحالة المادية لا تسمح ي بهذا الترف ، ولو شئت ان اتردد على الفنادق لما كفتني أرباحي ، وانا آكل، بحكم العاده فقط ، ومتى عدت الى الدار مساء طبخت بيدي ، واكلت ملء شبعي • ان ميركا « ام الغرش » ، والماهر فيها من يوفر ما يستطيع ، وان رجع احدنا الى بلاده ، فليس من يسأله هناك ما كنت تأكل ، وانما يسألونه كم هو عدد الليرات التي معك

ولفت نظره سكون نبيه ، وامتناعه عن الطعام ، فتناول موزة ، ونزع منها نصف قشرتها ، وقدمها اليه مرفوقة بقطعة من الخبز وقال :

ـ ذق هذه الموزة ما اطيبها كل ولا تستحِ من المارة ، انهم لا يحفلون بأحد ، وهم يعلمون باننا رجال كد وعمل ، وان هذه البلاد ليست بلادنا ، ومهمتنا فيها ان تسحب شيئا من مالها • ان هذا الجنس من الموز الذي تظهر بقع سوداء على قشرته هو أفضل الاجناس ، وانا افضل الموز على غيره من الادام لانه مغذ ، وفيه حلاوة • وكثيرا ما اشتري جبنا أو زيتونا ، ولكني دائما احن الى الموز ، كل ولا تستحِ

فلم ير نبيه بدا من مسايرته

وانتهوا من الطعام فقال صاحب الدعوة :

ـ من عادتي ان استريح بعد الاكل قليلا ، وهذه الاستراحة تقضي بها اللياقة أيضا ، لأن أغلب الناس ينام بعد الغداء ، فمهما برعت في المناداة على بضاعتي ، فلن القى شاريا الا بعد القيلولة •

واحد يحدثهما عن احواله ، ووصف لهما حياته منذ غادر وطنه الى البرهة التي هو فيها

ووقف بعد ساعة تقريبا ، اذ آنت العودة الى العمل

وانقضى ذلك النصف الباقي من النهار كما انقضى نصفه الاول ، وعادوا الى الدار وقد عزم العم وابن أخيه على مباشرة العمل صباح اليوم القادم اذ اصبحا يعرفان « مخارم » اميركا ، واستراحا من وعثاء السفر

* * *

وحمل نبيه المناشف الثلاث ، ومشى منكمشا على نفسه انكماش الخجل، كأنه ارتكب امرا منكرا ، وكان يلتفت الى ورائه بين الخطوة والاخرى كما يلتفت السارق الذي يخاف ان يلحق به شرطي

وجرّب ان ينادى على بضاعته ـ كما علّمه صاحب الدار ـ فلم يستطع ، ان الصوت كان ينقطع في حلقه ، وذكر وهو يجرب المناداة بلدته ، فقد كان فيها دلال قصير القامة قبيح الوجه يحتقره الناس لسوء اخلاقه ، طالما لحق به نبيه ليسمع نداءه على حمار ضائع أو على مناقصة في البلدية

ولكن لا ، لن ينادي ان المرأة التي تريد ان تشتري منشفة ستراه ولا شك . وما دام هو يذرع الاسواق فسيمر بمن يحتاج هذا المتاع اللازم في البيت

واذا كان قد تخلص من المناداة بتلك الحجة التي تذرع بها ، فكيف يتخلص من الوصية الثانية التي اوصاه بها صاحب الدار ومؤداه ان يعرض بضاعته على كل شخص يقابله ؟ ولا بأس اذا رده الكثيرون فلابد ان يقع واحد من هؤلاء ؟

كيف يعرض المناشف وهو غير ملم الا بكلمات معدودة من لغة البلاد ؟

وتطلع الى الامام ، فشاهد امرأة واقفة على باب دارها ، فنوى ان يدشن عمله بها

وهيأ في نفسه ، طريقة العرض ، واخذ يتباطأ في خطواته اقصاء لهذه الهنيهة الرهيبة ، وتمنى لو تدخل المرأة الى الدار فينجو من هذه المجازفة ..

وظلت المرأة واقفة

وشرع يقترب منها

وسدد النظر اليها من البعيد

وانتقل الى الرصيف المواجه قبل ان يصل اليها ، وقال لنفسه :

ــ ان وجهها ليس وجه من تريد ان تشتري ، ولا احب ان استفتح عملي برفضها

وشكر ربه لانه الهمه الابتعاد عنها

وقابل في فكره بين حالته الحقيقية وبين الحالة التي يتمثله بها رفقاؤه ، واقل ما يتخيلون انه مرتد الآن طقما من الحرير النفيس ، وان الخدم تحيط به من كل جانب ، وان القيمة التي وصلت الى يده تكفي لشراء أكبر دار في بلدته

اما حالته الحقيقية فهي انه يقيس برجليه شوارع العاصمة ، ولا وجهة معينه له ، وليس في جيبه فلس واحد ، وقد حمل على كتفه هذه المناشف التي لو باعها كلها دفعة واحدة ، وظل يبيع مثلها كل ساعة لما تمكن من ان يجمع ثروة صغيرة في أجيال عديدة .

ها هو الآن في اميركا ، ينام على الارض في غرفة ما كان يرضاها في بلدته زريبة للماشية

ها هو الآن في اميركا مضطر الى عرض بضاعته كانه مستعطٍ

ها هو وحده في اميركا ، ليس من يفهم عليه

وانهكه التعب

وجلس على حفة باب للاستراحة

ومرّ به فريق من الناس دون ان يشعر بوجوده

ومرّ به فريق آخر كان ينظر اليه نظرة تنطوي على عدم المبالاة

ومر به رجل متقدم في العمر ، تأمله قليلا ، وتقدم منه ، وخاطبه بعبارات لم يفهم منها شيئا ، فوقف احتراما ، واشترى منه منشفة بعد ان حدد له ثمنها باصابعه ، فأدى الرجل القيمة وطوى المنشفة وبسط الجريدة التي معه ولفها بها ومضى

ولم تبد على وجه الفتى علامات الرضى لهذه الصفقة الاولى التي اتمها في بلاد الذهب ، وادرك ان الرجل لم يشترِ منه المنشفة لانه بحاجة اليها ، وانما اشتراها رثاء له ، وشعر بانه يتصاغر امام نفسه

وكان الظهر قد حان ، ولم يحس بالجوع ، وهل يحس به وهو في شغل بهذه الخواطر التي تماوج في رأسه ؟

وظل الفتى يمشي كمن يريد ان يصل الى محجة معينة

وكان عمه قد اوصاه بان يعود الى البيت اذا تعب أو جاع

ولم يعد يدري اين اصبحت الدار

فانتشل الورقة التي فيها العنوان من جيبه وبسطها لأول من شاهد ، فأشار اليه الرجل بأن يلحقه ، ثم اختلف طريقه ، فدلّه بالاشارات

ووصل الى الدار والفشل يغلّف وجهه . انه لم يتمكن من ان يبيع

من البضاعة التي حملها غير منشفة واحدة ، والربح الذي تركته لا يكفي اجرة المسكن في ليلة

وارتمى في أرض الغرفة حزينا ، فأسرع اليه عمه يسأله عما به وهو مدرك ما به ، وراح يخفف عنه ، ويستفسره عن تفاصيل يومه ، ويواسيه مبتسما

واخبره عمه بدوره عن عمله في ذلك النهار ، وقد كان أكثر توفيقا منه اذ باع خمس مناشف ، وما برح يكالمه ويباسطه الى ان سرى عن قلبه الهم ، فقال له أخيرا :

ـ علينا أن نهتم بالعشاء ، فماذا نطبخ ؟

فقال نبيه :

ـ افعل ما بدا لك

فسكت العم قليلا ليتابع سائلا :

ـ اتريد ان نطبخ برغلا ؟

فأجابه نبيه :

ـ كما تشاء

ونزل العم فاشترى برغلا وزيتا وفحما ، واستعار من صاحب المنزل « مقلا » وانتهى من عمله بعد ساعة ، فدعا ابن اخيه وكان لا يزال مستلقيا على الارض ، واكلا من الطنجرة رأسا ، فلم يكن لديهما صحون ولا ملاعق ولا غير ذلك من أدوات المائدة

وحسب العم المصروف والمسحوب في ذلك النهار ، فكان الرصيد الباقي لهما أكثر من ريال تقريبا ، فشكر ربه وحمده على هذه النعمة ، آملا ان يكون ربحهما أعم في الآتي من الايام

وأخذ نبيه الطنجرة فغسلها

ودعاهما صاحب المنزل لقضاء السهرة في غرفته ، فلبى العم دعوته .
اما نبيه فآثر ان يستريح ، ووضع الكيس تحت رأسه واخذ يتقلب ،
والخواطر تتقاذفه الى ان اغلق النوم أجفانه

وايقظه عمه في اليوم التالي ، وذهبا الى دكانة المناشف ، فاشتريا منها
ما يلزم ، وتوجه كل منهما الى ناحية مختلفة من العاصمة

وباع نبيه منشفة بعد ان ترك عمه بدقائق معدودة

وحاول المناداة مرة ثانية ، فظل صوته مستعصيا عليه

ودعته امرأة واقفة على باب دارها ، فاتجه اليها ، وكلمته فلم يفهم ،
ونادت هي رجلا لم يعلم اهو زوجها أم أخوها ، وجعلا يتحدثان ويشيران
اليه وهما تارة يبتسمان ابتسامة الاستغراب ، وتارة أخرى يهزان رأسهما
هزة الاشفاق

وأخيرا تناول منه الرجل منشفتين ، وسأله عن ثمنهما ايماء ، ومد يده
الى جيبه وسحب منه مبلغا سلمه اليه

وهم نبيه بمتابعة السير ، فاستوقفته المرأة بيدها ، وتبادلت مع رفيقها
بضع عبارات ، ودخلت الى الدار لتعود منها بقطعة من الخبز في قلبها قطعة
من اللحم المقدد وقدمتها اليه

فأحس نبيه بأن سهما سنينا يخترق احشاءه

ماذا ؟ أيعتبرونه متسولا ؟

او تدل هيئته على انه جائع ؟

واصطبغ وجهه بحمرة الخجل

اين عيناك يا امه لتريا هذا الموقف ؟

واسرع بالابتعاد عن ذلك المكان

* * *

وما كادت اعصابه تهدأ قليلا من اثر ذلك الاشفاق الجارح ، حتى شاهد شابين في ناصية شارع ، فاستوقفاه ليطرحا عليه اسئلة عرف ان لا علاقة لها بالمناشف ، فسكت ، وشـــرعا يضحكان ضحكا عاليا متواصلا ، واراد المسير فأشار ا عليه بالانتظار فانتظر ، وواصلا السخرية منه ، وخرج من سمانة قريبة شاب ثالث ، فانضم اليهما ، وتابعوا الضحك

وعبس نبيه ، وقد صعد الدم وجهه ، ومشى فتبعه احد الثلاثة ، وهو يمسك بطرف منشفة كما يمسك سائق الاحصنة باللجام ، وجعل يقـوم بحركات من يسوق جوادا جامحا امامه

وكأن رفيقاه قد عرتهما نوبة طويلة من الضحك ، واشترك معهـم بعض المارة

وتمكن نبيه بعد جهد من التخلص من ذلك الشاب ، والغيظ يسربله من قمة رأسه الى اخمص قدميه

وشعر انه يوشك ان ينفجر ، وانه بحاجة الى الهدوء والاستراحة ، فلف المناشف لفة الصرة ، ونقلها من كتفه الى تحت ابطه ، واستأنف السير الى ان بدت له من البعيد ساحة عمومية ، فاسرع اليها وجلس على مقعد من المرمر ، وارخى لافكاره العنان

ان نفسه لفي جوع الى الثورة

ولكن على من يثور ؟

اعلى عمه ؟

وما ذنب عمه ، وهو لو استطاع لما تركه يمد يده الى عمل ؟

الأنه سعى باصطحابه معه الى اميركا ؟

وهل كان يدرى عمه ان اميركا هكذا ؟ لقد انخدع مثله بكلام العائدين من بلاد الذهب

اعلى امه ؟

وقد بذلت جميع ما في وسعها ليبقى قربها ، وكان هو الملح بان تسمح له بالاغتراب ليصبح رجلا ؟

اعلى الناس ؟

وهل يهتم به الناس ، وكل منهم في دنياه ؟

ومن هو تلفت ثورته الانظار ؟

وكيف يثور ؟

ايقف ويصرخ وليس من يفهم عليه ؟

اولا يعتبرونه مجنونا ؟

ماذا يفعل ؟

ماذا يفعل ؛

وهبت عليه نسمة خففت شيئا من حدته

وذكر بلاده وايامه الماضية

فرفع انظاره الى السماء معاتبا الرحمن على ماكتبه عليه

وتأمل حوله ، فشاهد ساعة من ساعات البلدية تعلن اقتراب العصر

ومادا يهمه من الوقت ؟

انه لم يأكل شيئا من الصباح

وكيف يجوع ودمه يغلي من الغيظ ؟

واين يأكل ؟

فليرجع الى البيت ، فالمرحلة طويلة

* * *

وانقضى الاسبوع الاول على نبيه في اميركا وهو على الحالة التي سبق ذكرها

يستفيق في الصباح الباكر ، فيذهب ، برفقة عمه ، ليشتري بضع مناشف ، ثم يتحول الى التجول في الاسواق حتى المساء ، وقد يبيعها او قد يبيع منها شيئاً ، ثم يعود الى البيت ، فيسلم قيمة المبيع الى عمه ، ويتعاون معه على اعداد العشاء

ولم يتبدل عشاؤهما طيلة الاسبوع

وكان نبيه يستريح قليلا بعد العشاء ، وهو حليف التفكير العميق والصمت الطويل ، ثم يستلقي على الارض وينام

وجاء الاحد ، فافهمهما صاحب الدار ان العمل في ذلك النهار لا يدوم الا الى الظهر ، اذ يغدو بعده المشي في الاسواق للبيع سدى ، فضلا عن ان عدم مراعاة بطالة الاحد عيب ينظر اليه اهل هذه البلاد نظرة غير مستحبه

وعاد الفتى الى البيت بعد الظهر ، وجسمه بحاجة الى الراحة ، وقد صمم على ان يستريح . وانما وجد عمه يغسل ثيابه ، ولم يرَ بدا من مجاراته ، ودخل الغرفة فبدل امتعته ، ووضعها في الجرن ، وغسلها ثم نشرها لتنشف

ونبهه عمه الى وجوب الكتابة الى امه في الوطن ، لتطمئن عنه

واعاره صاحب الدار أوراقا ومغلفات وقلما

وكتب

وكتب خلاصة ما جرى له في الاسبوع ، وراجع سطوره ، فهز رأسه هزة الانكار ومزق الورقة

انه لا يريد ان يزعج والدته واخته ، واذا اطلعتا على حالته فلن تعودا
ستطيعان النوم ، وقد تكتبان اليه بان يرجع في الحال الى الوطن
وكيف يرجع ؟
وماذا يستفيد اذا شرح عن اميركا كما هي ؟
وكيف يكذب عليها ويقول لها ان اميركا جميلة وان حالته فيها على
ما يرام ؟
انه لفي حيرة
وقرر أخيرا ان تكون رسالته مختصرة ، فيطمئن امه على صحته وصحة
عمه ، ويخبرها عن وصولهما وعن شروعهما في العمل ، ولا يزيد على
ذلك

* * *

وكرت الايام على نبيه وعلى عمه ، وهما يربحان يوما عدة ريالات
ويوما ثانيا لايزيد معها بارة واحدة من الربح ، ووفرا ما يقارب العشرين
ريالا •

وفاتحه عمه ذات امسية بعزمه على مشترى فراشين من الصوف
ووسادتين للنوم ما دام ثمنها لايفوق عشرة ريالات ووافق الفتى على هذه
الفكرة وهو مسرور بينه وبين نفسه ، فقد كاد يترضض جسمه من النوم
بلا فراش •

وقر رأيهما على ان يرجعا من العمل في اليوم الثاني نصف ساعة قبل
الميعاد ، فيقصدا محل الاثاث ، فيبتاعا الفراشين والوسادتين •
وذهبا في الصباح كعادتهما ، فاشتريا عدة مناشف ، واتجه كل
منهما الى ناحية •

وغمر الفتى شيء من الارتياح وادرك ان مصدره هو تفكيره بانه ، في تلك الليلة ، سيستلقي على فراش ، ان لم يكن النعومة مجسمة فهو افضل من خشب الغرفة •

وباع منشفة ربح منها نصف ريال •

وواصل المشي •

فعارضه في ملف من ملفات الشارع رجل في مقتبل العمر ، أنيق اللباس، على انفه نظارتان •

ووقف الفتى وتأمل الرجل تامل السائل عما يريد •

وكان جواب الرجل كافيا ليشعر الفتى بان الارض تميد تحت رجليه، وبان مصيبة من المصائب الكبرى تحل عليه واستعصى عليه الكلام ، وحاصرت العبارات في حلقة • وماذا يتكلم ؟ والضمة من الكلمات التي تعلمها مدة وجوده في بلاد الذهب لاتكفي لشرح حالته •

والقى الرجل بدوره السؤال الثاني

وسكت الفتى •

هذا المفتش ، وهو يطلب منه الرخصة التي تخوله البيع متجولا في الاسواق •

ومن اين للفتى الرخصة ؟

واومأ الرجل الى الفتى ان يرافقه •

وكأنه خاف ان يفلت من بين يديه ، فما وصل الى زاوية شارع فيه شرطي حتى وقف ، فكتب ضبطا بالقضية ، وتحادث قليلا هو وحافظ الامن ومضى ، فعاد الشرطي وطلب من الفتى ان يرافقه ، ففعل ، وهل في يده غير ذلك ؟

وكان المارة يحدقون الى نبيه فتبدو على وجوههم علامات الاسف والرثاء ، وقد حسبه الكثيرون انه ارتكب مخالفة من المخالفات الكبرى ، وكان البعض يسألون الشرطي عن السبب ، فيخبرهم •

وتبعهما عدد من الاولاد ، كان الشرطي يقصيهم ، فيبتعدون لحظات، ثم يخفون الخطى الى ان يلحقوا بهما من جديد وصلا الى مكتب فيه فرع من فروع البلدية ، فادخله الشرطي وقدم الضبط •

ونادى الموظف الفتى ، وسأله عن اسمه وعن كنيته ومحل اقامته ، وغير ذلك من الاسئلة المعهودة في مثل هذه الحالة • وافهمه اخيرا ان القانون يقضي بان تضبط البضاعة الى ان يحرز صاحبها الرخصة ، ويدفع الجزاء الذى هو خمسة ريالات وتناول المناشف الخمس منه وسلمها الى احد الموظفين ، ودعاه الى الذهاب والاتيان بثمن الرخصة والجزاء •

ارأيت القائد وقد اضطرته الظروف الى تنكيس اعلامه ، والاستسلام الى العدو ، بعد ان اوكلت اليه البلاد التي هو منها مصير فئة كبيرة من ابنائها ؟

هكذا كان نبيه وهو راجع الى البيت •

وضاقت الدنيا في عينيه ، لا للقيمة التي خسرها ، فهي وان كانت نسبة كبيرة من رأسماله لاتخرج عن كونها بضعة ريالات ، وانما لهذه الخيبة التي ذاقها في بلاد المال ، لهذه الحرفة الحقيرة التي يجهل متى يكون الخلاص منها •

ولم يكن عمه قد عاد بعد من العمل ، فاستلقى على الارض في الغرفة ، واخذ يستعيد الحوادث الاخيرة التي مرت عليه • وهو لايكاد يصدق انه هو هو ، ويتمادى به الوهم احيانا ، فيعتقد ان ما يشهده الان

هو حلم مزعج لا يلبث ان يتلاشى ووصل عمه اخيرا ، فاسرع صاحب الغرفة واخبره بالواقع ، فامتقع لونه ، بيد انه قدر في نفسه حالة ابن اخيه، ولم ينشأ ان يزيد بلواه ، فألبس وجهه رداء من عدم المبالاة ، وصعد الدرج وهو يردد :

ـ وماذا يهم ؟ لابأس، في الشهر القادم نحصل على الرخصة، ولايعود لاي مفتش في الدنيا حق في ان يعترض طريقنا .

وقابله نبيه ، فتابع العم :

ـ انت حزين لهذه المسألة البسيطة ؟ صحيح انك لاتزال ولدا ، اخبرني

فبسط الفتى ما جرى له ، وكان العم يضحك بين الحين والاخر ، متظاهرا بالاستخفاف بالمصيبة ، ولم يفت الفتى ذلك .

فجاراه متظاهرا بالسكون .

وعاد عمه الى الترديد :

ـ ان المسألة بسيطة ، نحسب اننا جئنا الى اميركا بعد اسبوع من مجيئنا الحقيقي ، وكل ما هنالك اننا بدلا من ان نشترى الفراشين اليوم ، نؤجل ذلك اياما ريثما نعوض ما خسرناه . اننا لا نريد ان نرتب ديونا علينا . وما دمنا استطعنا ان نقضي هذه المدة ، ونحن ننام على الارض ، فاننا نستطيع ان نقضي مدة ثانية مثلها . الاترى ما اراه ؟ تعال نهتم بالعشاء وغدا فرج .

* * *

واطل صباح اليوم التالي ، ولم يكن يختلف عن غيره الا بان الجو غائم . وسأل العم صاحب الدار بصفته اقدم منه عن حالة الطقس فاجاب :

- ان هذا الغيم ليس وراءه مطر ، وان امطرت ، التجأتما الى اى مكان حتى ينقطع المطر .

وذهب العم ومعه نبيه فاشترى كل منهما ست مناشف .

وسار نبيه وهو يرجو من الله ان يبعث بامطاره على الارض ، فيتخلص على الاقل ، ذلك النهار من عمله واستجاب الله تضرعاته بعد ساعة فانهمر المطر ، والتفت حوله فشاهد بابا مفتوحا على ممر طويل ، فلجأ اليه ووقف على عتبته ، وشرع يمتع عينيه بمنظر الغيث .

واشتد المطر

وانفتح الباب الداخلي في الممر ، وخرجت منه امرأة ناضجة العمر وصاحت بالفتى صيحة تنطوى على سؤالة عما يفعل في ممر بيتها ، فاشار اليها اشارة تعنىانه التجأ الى هذا السقف لئلا تبلل المناشف ، فلا تعود تصلح للبيع فصاحت به ثانية ومدت سبابتها الى جهة الشارع طردا له ، فهم بالكلام ، فتقدمت منه وركلته بقدمها ، فلم ير ندحة من مغادرة ذلك المأوى ، وطوى المناشف تحت معطفه القديم ، كما تيسر له صونا لها من البلل ، وسمع الباب ينغلق ورائه بعنف .

ولم يكن الوقت متسعا للتفكير ، فالمطر ينهمر بغزارة ، وشاهد قبالته الى اليمين بابا مفتوحا ، فاسرع اليه حتى اصبح تحت سقفه .

وتسنى له بعدقائق ، ان يزن ما مر به ، وتمثل له ذله .

لقد طردته المرأة كأنه كلب يدنس دارها او لص يسطو على مالها .

لم يكن قبل اليوم مخدوعا بما يتعاطى من مهنة ، فهو يعرف انها منتهى الحقارة ، ولكنه لم يكن يقدر في عقله ان يبلغ الاحتقار الى هذاالحد

واحس من جديد كأنه وحيد في هذه الدنيا وان جميع الذين يحيطون به اعداء له •

وسالت الدموع من مآقيه غصبا عنه ، وكانت دموع غيظ وغضب •

وخفف البكاء شيئا من لوعته •

وظل المطر ينهمر •

ومسح دموعه بكمه •

وانفتح الباب الداخلي في المشى الذي هو فيه ، فلم يلتفت ليرى من القادم ، بل تهيأ لمغادرة مأواه ، خوفا من ان يصيبه ما حل بــه منذ هنيهة •

وكانت المناشف على الارض ، فرفعها ليضعها تحت معطفه •

ووصل الذى فتح الباب اليه ، فامسكه من كتفه بلطف ، وسأله عما ينوى ان يفعل ، فاطلعه على عزمه فاستمهله ريثما يهدأ المطر •

وتحول الرجل الى الداخل ، فجاء بكرسي فقدمها ليجلس عليها ، فاحمر وجه نبيه خجلا من هذا العطف ، وشكره بكلمات متقطعة •

ورجع الرجل فأتى باوراق كبيرة عديدة ونصحه بان يلف بهـــا المناشف بعد ان يهدأ المطر فان الماء الباقي في الشجر يبلل ما يحمل من البضاعة •

وعرف الرجل من ارتباك نبيه ان الحياء قد استولى عليه ، فتوارى من حيث اتى

وقابل الفتى بين معاملة هذا الرجل له وبين معاملة المرأة السابقة •

وعادت دموعه فرطبت وجناته •

والعطف يدعو الى البكاء كالاسى •

وسكنت الامطار •

فاتجه نبيه الى الباب الداخلي ، وقرعه بخفة فخرج الرجل فسلمه الكرسي شاكرا •

وابى صاحب البيت الا ان يتم عطفه ، فاشترى منشفتين ، ولم يشأ نبيه ان يأخذ ثمنها غير ان الرجل ابدى من علائم الاصرار ما حمله على القبول بالقيمة •

وعاد الى البيت ذلك اليوم ، ولم يخبر عمه بما حدث لئلا يستضعف اخلاقه اذا عرف انه بكى •

* * *

ومتى بدأت الاقدار بالسخرية فليس من يدرى معيار جدها ، وشهد نبيه في ذلك الاسبوع ذاته حادثة هذه خلاصتها :

كان سائرا ، وعلى كتفه بضاعته يعرضها بين الحين والاخر على بعض الناس ، فلمح شابا يتتبعه ، وتوقف قصدا على احد الابواب ليتأمله ، فاذا هو رث الثياب ، عليه سمات البطالة فتحذر منه •

ووصل نبيه الى شارع مقفر من المارة ، فخفف الشاب خطاه اليه ، وندم نبيه على اساءة الظن به ، فقد يكون من الذاهبين الى العمل او القادمين منه ، وقد يكون طريقه ـ بحكم الصدف ـ نفس الطريق الذى يسير هو عليه •

وحاذاه ، وسأله عن ثمن المنشفة •

فاجابه نبيه

فامسك الشاب المنشفة ثم طواها بسرعة وولى هاربا ،

فطرح نبيه المناشف على الارض ، ولحق باللص راكضا ، وكان اخف منه فاستطاع بعد عشرات قليلة من الامتار ان يقبض على طرف معطفه

البالي ، توقف ومد نبيه يده الى المنشفة ، فاستعادها عنوة •

وتحقق اللص من فشله ، وخاف ــ على مايظهر ــ مغبة الامر ، فلكم نبيه لكمة قوية على ذقنه • وفر وهز نبيه رأسه مرارا ، ايقاظا لنفسه من الضربة ، واستند على الجدار ، ولبث هكذا ، عدة دقائق الى ان عاد اليه تمام وعيه ، فتحول الى حيث ترك المناشف ، فوجدها كما كانت لم يفقد منها شيء •

وتابع سيره وهو يلعن هذه الحرفة ، فهي عدا عن صغارتها لاتدر من الارباح ما يغطي السخرية التي يضطر الى احتمالها كل يوم من الناس عموما ومن الصبيان خصوصا ، فقد كان كثيرون منهم متى لمحوه من البعيد اخذوا تارة بالصفير وتارة بقذفه بالحصى الصغيرة ، وطالما اقتربوا منــــه وضحكوا عليه مقلدين مشيته ، وواضعين على اكتافهم اوراقا كما يضع هــو على كتفه المناشف ، الى غير ذلك من الهزء اللاذع ، فان نظر اليهم مهددا هربوا منه حتى اذا عاد الى مشيته ، عادوا الى سخريتهم •

وكان من هؤلاء الصبيان من يلحق به عدة مرات الى ان يعرف أن كأس غيظه قد امتلأ فيتركه •

واذا اضفت الى ما تقدم ان معظم الساخرين منه كانوا يسخرون على قوميته ويقلدون حديث أبناء وطنه ادركت فداحة العذاب الذي كان يتحمله•

ولم يكن هو وحده المتحمل ،فقد كان جميع مواطنيه ،لاسيما الذين يحترفون البيع تجوالا ، يعانون ما يعانيه ، وكان يلتقي بين الحين والاخــر ببعض ابناء بلاده فيجلسون على احفــة الابواب ، فان حــاول ان يشكو ، سبقوه الى شرح مايتكبدون ومنهم من كان ينظر الى تلك الحالة نظرة اللهو، ويقص ما يجرى له من هذا القبيل ، وهو يضحك كأنه يشهد روايـــة

هزلية في مسرح ، ومنهم من كان يعرض مراحل حياته ، وهو يتمثم الساعة التي ركب فيها الباخرة .

* * *

في العاصمة اسواق معينة تباع فيها البقول والفواكه ، وكل سوق مربعة خالية الوسط ، حولها محلات صغيرة ، يقصدها الناس من سائر الانحاء لرخص ما تبيعه .

والبلدية عليها وكالة خاصة ، فهي تعني دائما بان تكون نظيفة ، وبأن تكون أسعار المعروض في دكاكينها منخفضة ، الى غير ذلك من الشؤون التي تتولاها امثال هذه الدوائر . وتحميها البلدية من المزاحمة بأن تجعل كراء المحلات فيها ضئيلة . وبان تمنع بالقرب من هذه الاسواق افتتاح محلات تباع فيها الاصناف السابقة الذكر .

ومر نبيه يوما بأحدى هذه الاسواق ، فراعه ازدحام الناس حولها ، فوقف يتأمل الرائحين والغادين ، والمناشف على كتفه وفي يده واحدة يعرضها على المرشحين للمشترى .

وباع المنشفة الاولى ثم الثانية ثم الثالثة ، وما هي الا نصف ساعة حتى نفذت البضاعة التي معه ، فاعترته الغبطة اذ كانت تلك ، المرة الاولى التي يبيع فيها مثل هذه الكمية بمثل هذه السرعة ، فعاد الى محل المناشف ، واشترى ضعف ما كان معه ، ورجع الى مكانه من السوق .

ووفقه الله فباع مما اخذ كمية لابأس بها واوشك الظهر ان يحين فخف الازدحام ، اذ تقفل المحلات في المربعة ابوابها عند الظهر تقريبا .

ورأى نبيه ان لم يعد من رجاء ببيع المناشف في تلك الناحية ، فراح

كعادته يسرح في الاسواق وهو يتساءل كيف غفل ابناء الوطن عن هذا الامر ؟ كيف يتركون هذه الاسواق المزدحمة ليتجولوا في غيرها ؟ ايكون المبيع حول هذه السوق كل يوم هكذا ام يكون نجاحه اليوم صدفة من الصدف ؟

واخبر عمه وقد رجع الى البيت بما جرى ، فاستغرب عمه منه هذا التوفيق ، وقال نبيه :

ـ الا ترى ان نذهب غدا ، ومعنا عدد اكبر من المناشف ؟

فاستصوب العم هذا الرأى •

وناما تلك الليلة ، والامال تدغدغ مستقبلهما •

واشتريا في الصباح التالي ما استطاعا ان يحملاه من المناشف ،ومشيا نبيه امام عمه بصفته الدليل الى حيث الارباح •

وعمه وراءه ، وهو يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، ليتمكن من تمييز الطريق فيما بعد •

ووقفا في زاوية السوق ، والناس تزدحم جيئة وذهابا

وباع العم المنشفة الاولى

وباع نبيه منشفتين

فقال العم :

ـ ان مجيئك الى هنا الهام من الله ، فلنكتم الخبر عن صاحب الدار •

وقطع عليهما مجرى الحديث شرطي انتصب حيالهما وافهمهما ان الوقوف حيث هما ممنوع ، وامرهما في الحال ان يغادرا المكان •

ففعلا ، والاسف يلهف وجهيهما بسوط الخيبة •

ومشيا والشرطي وراءهما •

واصبحا بعيدين عدة مربعات عن السوق ، وخف ازدحام الناس ، فتوجه اليهما الشرطي ليطلعهما على انه ذاهب بهما الى دائرة البوليس ليلقيا جزاء المخالفة بوقوفهما ، ومعهما بضاعة ، قرب السوق البلدية .

فقال العم لابن اخيه :

ـ حدثه راجيا ان يتركنا ، فنحن لم نكن ندرى ان ذلك ممنوع .

ففعل الفتى على قدر الامكان ، فلم يشأ الشرطي ان يصغي لما قال .

وتقدم العم، فافهم حافظ الامن تارة بالاشارات ، وتارة بالعربية بانهما فقيران ، وان ذهابهما الى الضبطية لن يفيده شيئا وان معروفه اذا تركهما لن ينسياه .

وخامرت فؤاد الشرطي الشفقة من لهجة العم ، فتركهما بعد ان حذرهما من العودة الى مثل تلك المخالفة .

ورجع المسكينان ، وقد شكرا ربهما على خلاصهما من الجزاء .

وقال العم :

ـ بالطبع ، لو كان الامر سهلا كما ظننا لما كنا نحن اول من اكتشفه . الاتكال على الله ، فلنتابع عملنا كالعادة . انا ذاهب الى الطريق الذى تعودته، فاذهب انت حيث لك عادة ان تذهب ، وفقك الله .

وكانت الصدمة التي لقيها نبيه كبيرة ، وقد كبد عمه العذاب ، وعرضه وعرض نفسه للاهانة في الضبطية ، وسرى سم الغضب على الحياة في عروقه فجلس على عتبة باب في الطريق ليطرد اشباح اليأس التي كانت تتراقص امام عينيه .

* * *

وجاء ، يوما ، صاحب الدار ، والسرور يطفح على وجهه ، وقال لعم نبيه :

ـ لقد اراد الله ان يخلص ابن اخيك من عذاب الشارع ، اتحب ان يكون مستخدما في محل ؟

فسأل :

ـ اي محل ؟

فأجاب :

ـ لي صديق مقيم في مكان لا يبعد اكثر من ألف متر ومحله التجاري من المحلات الموفقة ، وهو بحاجة الى مستخدم فافتكرت بابن اخيك ، واخبرته عنه وعن نشاطه ، فكان طبق المراد ، اما الاجرة التي يدفعها فثلاثون ريالا في الشهر ، وهو الى ذلك يطعمه ويكسوه •

فقال العم :

ـ ان الاجرة قليلة ، وسأحدث نبيها متى جاء •

فقال صاحب الدار :

ـ انا لا انكر ذلك ، ولكن المقام في دكان غير الحياة في الاسواق تجوالا وانت اذا حسبت حسابا دقيقا وجدت انك لن توفر في الشهر اكثر من ثلاثين ريالا ، فضلا عن ان مستقبله عند الرجل مضمون نوعاما ، فسيزيد له الاجرة متى شاهد منه غيرة ونشاطا وامانة •

وقدم نبيه ، فاطلعه عمه على الحدث الجديد ، وترك له الاختيار ، وان كان اغراه من طرف خفي، بالاستخدام

وتردد نبيه •

فقال صاحب الدار :

ـ جرب اياما ، فان اعجبك العمل ، ظليت ، والا عدت الى صنعتك الحالية

ورضي نبيه

واخذه صاحب الدار الى صديقه ، فاستقبله هذا بكثير من البرودة ، وعرض عليه شروطه

وتم الاتفاق على ان يكون الاسبوع الاول فترة تجربة •

وقال التاجر :

– في زاوية الردهة الداخلية مكنسة ، هاتها ونظف الدكان جيدا •

فلبى نبيه الامر •

وسرح «المعلم» انظاره حيث نظف نبيه ، ومد اصبعه الى كل ناحية ، وكان يقلب شفتيه بين الحين والاخر ، قرفا ، والتفت الى الفتى بعد ذلك الفحص ، وقال :

– ابدأ من جديد ، فالمكان لا يزال وسخا •

فلم يشا نبيه ان يعارضه •

وناداه بعد ان انتهى من عمله قائلا :

– في الجرن الداخلي بعض الاواني البيتية ، اغسلها جيدا ، ومتى انتهيت منها اخبرني

ففعل نبيه صابرا ، وهو يقول في نفسه :

– لعله يريد ان يقيس مدى احتمالي في اليوم الاول •

وكان لاينتهي من عمل مضنك حتى يهيء له عملا اشد ضنكا •

ولم يتسن للفتى طول ذلك النهار ان يتكلم كلمة واحدة بلغة اهل البلاد

وكان اليوم الثاني نسخة طبق الاصل عن الاول السابق ، وان كان العمل فيه اكثر واشمل •

ولم يكن التاجر يتركه يتعامل مع الزبائن ، ولا يستريح دقيقة واحدة واوشك صبر نبيه ان يفرغ •

وصرخ به المواطن :

ـ هات حذائي من غرفتي وامسحه •

وكان هذا الطلب ، القطرة التي افرغت ما في صدر نبيه من الاحتمال ، فتأمله قليلا ، وقال :

انني اتيت الى هنا لاكون مستخدما في المحل ، وانت تدفعني الى مآت عديدة لم تشترط علي بها ، انني اقول هذا لانفورا من العمل ، ولكنني اريد ان اتعلم البيع والشراء ولغة البلاد •

فصاح به التاجر :

ـ اتجرأ على معارضتي ؟

فقاطعه نبيه :

ـ ليست هذه معارضة ، وانما هي الحقيقة الناصعة ، ولما كنت قد دخلت اسبوعا للتجربة ، فاني اصارحك بان هذه الايام التي قضيتها هنا كفت ، فانا اتركك وليسامحك الله باجرتي •

قال هذا ، وغادر المحل •

ودعاه التاجر ، فلم يلتفت اليه •

وعاد نبيه الى غرفته ، وقال لعمه :

ـ اني افضل ان اتعذب مر العذاب في الاسواق بائعا متجولا حرا ، على ان اكون عائشا انعم عيش وحريتي مفقودة • اني مستأنف بيع المناشف منذ صباح الغد ، ولن ارجع الى الاستخدام في حياتي ، مهما كانت الاجرة •

فقال عمه :

ـ افعل ما بدا لك ، انا احب ان تكـون راضيا ، فـان كنت اغريتك بالاستخدام فلكي تستريح قليلا ، وما دامت معاملة الرجل كما ذكرت ، فقد فعلت حسنا بتركه •

★ ★ ★

وايقظه عمه في الصباح ، فاشترى عدة مناشف ، وتوجه متكلا على الله ، وشعر على الرغم مـن كرهه لهـذا العمل بانه في نعيم اذ قابل بـين حالته ، وما كان عليه عند التاجر •

وطلبت منه امرأة في الطريق ان يرافقها الى دارها القريبة لتشتري منه ، فرافقها ، وابتاعت منه اربع مناشف ، غير انها اخبرته ان جميع مـا معها من المال هو خمسة ريالات ، ولما كان ثمن المنشفة ريالا ونصف بقى عليها دينا ، ريالا واحدا تدفعه نهار غد ، فحسن لها نبيه ان تشترى ثلاث مناشف فقط ، وتبقى الرابعة الى الغد ، فاعلنت انها بحاجة اليها كلها دفعة واحدة •

وحسب نبيه في نفسه حسابه ، واستنسب ان يبيعها المناشف الاربع كما طلبت ، فثمنها اربعة ريالات ، فهو يربح ريالا واحدا اليوم ، وغدا ريالا اخر •

وقبل بالصفقة •

وخرجت في اليوم التالي معتذرة بانها لن تستطيع ان تؤدي له حقه اذ ان زوجها لم يقبض بعد اجرته ، واستمهلته يومين •

وذهب في الميعاد المضروب فاعتذرت كذلك ، واكدت انها ستدفع ما عليها نهار الخميس من الاسبوع القادم •

وقصد دارها النهار المذكور ، فخرج زوجها ، وعليه علائم الغضب، وصاح بنبيه صيحة عالية ، وشرع يسبه سبابا لئيما ، فحاول نبيه ان يكشف له الحقيقة ظنا انه يجهلها ، فاخبره بان لا يجهلها •

ولمح نبيه المرأة خارجة من غرفة الدار ، فقدر انها لابد ان تسكن غضب زوجها ، وتطلب اليه ان يؤدى ما عليها • فخاب تقديره ، وابصرها قد حملت عصا وجدتها في فسحة الدار ، وجاءت تساعد زوجها في السباب وزادت على ذلك بان هددته بان تشكو الى دائرة البوليس اذا ازعجها مرة جديدة بمطالبته

وتقدم زوجها ، فدفعه الى خارج الدار بعنف •

ولم يكن نبيه ينتظر هذه المعاملة ، وهو صاحب الحق ، فوقف على الرصيف كمن اصابه دوار الى ان هدأ روعه قليلا ، وتابع سيره ، وقد اظلمت الدنيا في عينيه •

ماذا ؟ اتهضم حقوقه ، ثم يهان ويسب ؟

اهذه اميركا ؟

* * *

ولم يكن الدهر قد انتهى بعد من تجربته ، فوقع له على اثر ذلك الحادث ، مايلي :

نادته امرأة الى دارها لتشترى منه بعض المناشف ، وكانت فسحة الدار – والاثاث مكدس فيها دون ترتيب – تدل على ان المرأة تنظف الغرف

ومشت به الى المطبخ في مؤخرة الدار ، فاخذت منه ثلاث مناشف ، وادت ثمنها وانصرف

ولما توارت عن عينه الدار ، سمع من البعيد صوتا يدعوه ، وشاهد شابا يومي اليه ان يقف فوقف

ولما حاذاه الشاب ، امسكه من معطفه ، وهو يشتمه وعاد به الى حيث باع المناشف •

وسأله نبيه عما يريد ، فقال الشاب :

– ان تظاهرك بالبيع ما هو غير ستار تخفي وراءك لصوصيتك ، سنذهب بك في الحال الى دائرة الشرطة بعد ان تعيد ماسرقته ايها اللص •

ولم يفهم نبيه شيئا مما سمع •

ووصلا الى الدار •

فاغلق الشاب الباب وراءه ، وقال لنبيه :

– هات الخاتم

فقال نبيه ، وهو كالغائب عن وعيه :

– اى خاتم ؟

ومد الشاب يده الى جيوب الفتى ، واخذ ينقب فيها مرددا :

– الخاتم الذى سرقته وانت خارج •

وكانت المرأة التي باعها المناشف ، وهي ام الشاب تصادق على كلام ابنها

وخرجت من احدى الغرف فتاة وقالت :

– وجدته ، كنت تركته على الرف في الداخل

واشارت الى الخاتم في يدها

فترك الشاب نبيها في الحال •

ولما وثق ان الخاتم في يد الفتاة اخذ يتعذر من نبيه عن اتهامه بالسرقة وهو برىء

فلم ينبس الفتى ببنت شفة

وتوجه الى الباب ، وخرج لا يلوي على شيء

* * *

واصبحا في السنة الاولى من هجرتهما ، وجمعا في هذه المدة كمية من المال تكاد لاتعوض عما دفعاه من مصارفات السفر .

وبات في غرفتهما بعض الاثاث ، واشتريا فراشين من الصوف الخفيف وسريرين عتيقين دهناهما بدهان قاتم وثلاث كراسي من القش ، ونجرا من صندوق عتيق شيئا سمياه مائدة كانا يجلسان حولها للاكل في المساء .

على ان نبيها لم تغادر مخيلته صورة البلاد التي غادرها ، فكان يتذرع بالسكون بين الحين والاخر ، فتعلو وجهه ابتسامة استخفاف ، فيها شكل من اشكال القنوط .

وكان عمه – وهو السبب في سفره – يشعر بانه مذنب تجاهه ، فيعمد الى تسليته ، فيتظاهر نبيه بالتسلية ، ثم لايلبث ان يلجأ الى وجومه .

وامسى لهما بعض الاصحاب ، ممن كانوا يعملون مثلهما ، فكانوا يزورونهما ليتحدثوا عن الوطن

وكان نبيه يحرق زيت تفكيره لعله يجد بابا للفرج فيعييه الامر .

كان يفرض انه سيلبث على ما هو عليه خمس سنوات ، ثم ماذا :

سيظل يبيع المناشف متجولا في الاسواق

ومتى تكون العودة الى الوطن ؟

وكيف تكون ؟

ان والدته واخته تنتظران ان يعود اليهما في القريب العاجل ، ولا يهمهما ان عاد غنيا او فقيرا

ولكن اهل البلدة ما تكون آراؤهم فيه اذا رجع وجيوبه فارغة أو تكاد ؟

الا يصبح مسخرة لهم ؟

الا يقولون عنه انه بطال لايحب العمل ؟

ليتهم يجيئون ليروا كيف يعمل

ليتهم يعرفون ان اميركا وهـم اكثر مما هي حقيقة ، والذين توفقوا التوفيق الباهر لا يعدون على الاصابع ، ونجاحهم ، اغلب الاحيان ، وليد الصدفة والحظ •

فهـــذا رجـل اغتنى لان صديقا اشده الى غابـة اشتراها ليجعـل منها «مفحمة» •

وهذا ثان تمكن من مشترى دار ما لبث ان ارتفعت ثمنها •

وهذا ثالث ، افتتح دكانة ، وغدا اولاد العرب يشترون منها بضاعتهم، فهو يستغل سذاجتهم

حظ وقسمة ••

★ ★ ★

ويظل في قلب الدهر ، وان ضيق منافذ العيش على المرء ، نبضة من نبضات الحنان ، فكم من فرج يعتبر اقرب ما يكون الى المستحيل ، يتحول الى حقيقة تجيء بالامان والاستقرار والسعادة •

وعاد نبيه يوما الى الغرفة ، فرأى فيها رجلا غريبا يحادث عمه ، وما كاد يولج الباب حتى عرفه على الزائر فحياه نبيه تحية الاحترام ، وجلس •

وقال الزائر موجها حديثه الى نبيه :

ـ انت لاتعرف من انا ، ولا عمك ، ولكن المرحوم والدك يعرفني جيدا ، ولاشك في انه حدثكما عني ، وان كانت العلاقات بيني وبينه لم تدم طويلا • لقد ادى لي جميلا لايمكن ان انساه مدى الحياة اذ كانت حالتي المادية تعيسة الى اخر حد ، وكانت الديون متراكمة علي ، وبين الدائنين رجل اراد ان يبعث بي الى المحاكمة ووراءها السجن ، وكنت بحاجة الى من يكفلني امام هذا التاجر لاستطيع ترميم حياتي والعودة الى العمل ، وطرقت ابواب الكثيرين فخاب املي وما اتصل بالمرحوم والدك خبري حتى جاءني ليعرض علي مساعدته بلا جزاء ، واستطعت بهذه الواسطة ان انتشل نفسي من بؤرة الافلاس والشقاء ، وزاد في قيمة هذا الصنيع انه لم يشأ ان يذكره البتة ، وكنت اذا هممت بشكره منعني من الكلام •

واستعاد الزائر بعض الذكريات عن والد نبيه ، ثم سكت هنيها ،وقال:

ـ وقد علمت اليوم بقدومكما ، فاسرعت اولا للسلام عليكما ، وثانيا لاعرض عليكما ، ما يلي : عندي دكانة ناجحة في طرف من اطراف المدينة واود ان اتركها ، لاني اميل الى مشترى الحبوب من الداخلية وبيعها في العاصمه وهي تجارة تدر كثيرا من الارباح • أفتريد ان تبتاعا الدكان هذه ؟ لاتتعلقا بحجة ان لا رأسمال معكما لمشتراها • اننا نجرى تقويما فيها ونقسط ثمنها على اشهر عديدة بمعنى ان الارباح التي تنالانها منها تؤديان منها الاقساط ، فان لم تتمكنا من دفع ما عليكما في المواعيد ضربت لكما غيرها ، وانا مستعد ان ارافقكما فيها شهرا لتطلعا على سيرها ، فيكون دخولكما فيها على ضوء ، فما رايكما ؟

وسكت

وكانت السعادة التي لاحت لهما مفاجأة ، فلم يصدقاها على علاتها •

وحدق نبيه الى عمه ، وحدق اليه عمه ، وتشاورت العيون •

وقال العم :

انا نشكرك جزيلا ، ولكننا نرغب منك ان تمهلنا الى الغد •

فاجاب :

ـ كما تحبان ، اني آت غدا في مثل هذه الساعة لاخذ الجواب •

وانصرف بعد هنيهة من أحاديث مختلفة •

وعادا للتشاور •

فقال العم :

ـ ماذا ؟

فاجاب نبيه :

ـ اذا كانت الصفقة التي يعرضها علينا دافعها الاشفاق ، فانا لا اقبل بها على الاطلاق ، وان كان يريد ان يترك الدكان من صحيح ، فلنهتم بما عرض •

فقال العم :

ـ انت مصيب ، تعال نسأل صاحب الدار

ولم يكن الرجل يعرف شيئا عنه ، فنصحهما بان يستمسرا من بائع المناشف •

فتحولا اليه ، وسألاه ، فاكد لهما ان الرجل قد بدأ فعلا بالمتاجرة بالمحصولات الزراعية ، وهو غني كبير ومستقبله عظيم •

فعادا الى البيت مسرورين •

ونام نبيه تلك الليلة نوما متقطعا ، وحلم باطمئنان ، بعد ان كابد من

عذاب الشارع مالا يعلمه الا الله

وكان النهار الذى تلا الليل احسن يوم مر على نبيه اذ استفاق كالعادة وذهب للعمل ، وتشاء الاقدار ان تداعبه قليلا بعد عبوسها المتواصل ، فيبيع مناشفه العشر دفعة واحدة ، ويعود ويشتري غيرها ويبيعها قبل ان يحين العصر وصدق الرجل صديق والده ، فقدم في الميعاد المعين ، ولما قبلا بالصفقة ، ذهب بهما تلك الليلة ذاتها الى المحل ، واتفق واياهما على سائر التفاصيل •••

صاحبنا العلامة

لم يكـن صاحبنا الذي اريد ان احدثك عنـه ذا رأسمال يميّل اقتصاديات الدولة او يعدلها فقد كان يملك تقريبا مائة ليرة ، موزعـة كما يلي :

طقمه ، وثمنه وهو جديد ، ثلاثون ليرة .

ثيابه الداخلية ، ومعها حذاءه ، وتساوى في حالتها الحاضرة عشرين ليرة .

بضاعته التي يحملها في سلة ، ويعرضها على البيوت ، وهي تقـدر بخمسين ليرة او تزيد قليلا .

ولكن صاحبنا كان راضيا عما قسمه له الحظ ، فهو لم يسع لزيادة ثروته ، او انه سعى وباء بالفشل ، فاعتبر فشله «صوتا من الله» يقول له ان لقمته هي هذه ، في الدينا ، فعلام يحاول ان يجعلها اكبر ؟ اهو اعلم من الله !؟ لو كان سبحانه وتعالى يدري ، في غامض علمه ، انه من المناسب أن يكون غنيا ، لاغناه ، ففي السماء قناطير مقنطرة من الاصفر اللماع ، فان لم يفعل فلان هناك سببا .

اما السبب ، فواضح . والعبارة هذه وما سبقها وما تبعهـا لصاحبنا فهو المسؤول عنها ، فليس لي انا الا تنسيقها لئن حرمه الله المال ، فقد عوض عليه بشيء اهم من الذهب .

عوض عليه بالذكاء ، بالذكاء الخارق .

لا يتبادر الى ذهنك الى صاحبنا اديب دانت له البلاغة .

او مخترع تسهل ابتكاراته سبل العيش .

كلا ثم كلا .

ان صاحبنا بفضل الله امي ، امي من الطبعة الاولى .

فان سألت اين اثار هذا الذكاء ؟

لباك الجواب مرتديا هذه الحادثة :

نهضت مرة من فراشي ، فوجدته في زيارتي ، وما كاد يراني اعرك عيني ، وانفض عني فتور القيلولة ، حتى باغتني بقوله :

ـ النوم

فاجبته :

ـ شكرا

فابتسم ابتسامة فيها معاني الامتهان ، وقال :

ـ أهذا جوابك لقولة « صح النوم » انك غبي ، واغبى منك الذين يؤكدون انك شاعر ، واشد غباوة من الذين يصفونك بالفطنة ، اولئك الذين علموك ، وماذا علموك ؟ القراء والكتابة ؟ واية فائدة من القراءة والكتابة وأنت عاجز عن جواب «صح النوم»

فقاطعته قائلا وأنا مدرك ان قولي سيزيد طين امتهانه لي بلة :

ـ لا تحسبني اجهل ما يجب علي ان ارد به على من يحييني به « صح النوم » . علي ان اقول له « صحك الله » .

فعاد الى الابتسام ، وهز راسه اسفا على الهواء الذي أتنشقه ، وقال :

ـ اذهب واغسل وجهك ، لا تزال بحاجة الى فتّ خبز لتصير رجلا

* * *

وكثيرا ما يعمد صاحبنا الى امتحان ذكائي ويقابله بذكائه ، فيشفق علي ، لاني في دركة من الانحطاط تستحق الرثاء ، ويهنيء نفسه لانه في قمة لا تدانى من العبقرية •

والامتحان سهل عليه •

يوجه الي مثل هذا السؤال :

ـ اذا طلب منك صديق ان تخطب له فتاة يحبها ، فماذا تفعل ؟

فاجيبه :

ـ اول ما افعل ان اسأله من هي ، ثم اين دارها ، فاقصد الى والديها في سهرة ، وبعد ان يقدموا لي القهوة ، اهمس في سمع والدها : ان غايتي من الحضور ليست زيارتك ، فانا لا اعرفك قبل الان ، ولا يهمني ان اعرفك ، والف ولي ، لم يجمع جدي وجدك ، غير ان صديقي فلانا كلفني بخطبة ابنتك له ، فما هو جوابك ؟ » فيقول لي صاحبنا :

ـ او تعتقد انك تخرج من دار الفتاة كما يخرج الناس ؟ ان اقل ما على والدها ، ان يطردك مثلما يطرد الكلب ولا يلام اذا فعل ، فلو كان لي ابنة وزارني جاهل مثلك ليخطبها لصديق لـه ، وطلبها كمـا اشرت لفقئت رقبته •

فاتظاهر بالسذاجة ، واسأله :

ـ هل لك ان تبين لي السبيل الذى يتبعه المكلف بالخطبة ؟

فيفتل شاربيه اذا كان واقفا ، ويتبسط على مقعده اذا كان جالسا ، وتظهر على وجهه في الحالتين سمات الارتياح ، كأن سؤالي دليل واضح على تفوقه ، ويقول :

ـ عليك ان تجعل الحديث في السهرة يدور كله حول الزواج ، فتذكر

ان الفتاة ، مهما بقيت عند اهلها فلا بد لها يوما من خاطب • وان الصبايا لايسترهن الا ازواجهن • ثم تشير ، من طرف خفي ، الى ان صديقك عاين الفتاة ، وهو يحب ان يتشرف بالانتساب الى عائلتها الكريمة • وتنهي حديثك املا من الاب ان لايخيب طلبك •

* * *

وهاك جلسة اخرى امتحنني بها •

سـألني :

ـ اذا فجع احد معارفك بعزيز ، وذهبت لتعزيته ، فماذا تقول له ؟

فاجبت :

ـ اربت كتفه بادي ء بدء ، ثم اصافحه ، واقول له افرح ، لانك لست انت الميت ، ولاتحزن على هذا الذى يضمه الكفن ، فقد قضى من هو خير منه ، والدنيا فيها اكثر من الف مليون نسمة ، فهل يضيرها ان يموت واحد لم يكن يفيد الانسانية بشيء ؟

فلمعت عينا صاحبنا بالسـخرية ، وعرته نوبة مديدة من الضحك ، وتأملني ، وقال :

ـ لم اكن اظنك جاهلا الى هذا الحد •

فقلت :

ـ لماذا تهينني ؟

فاعرض عن الجواب ، ووجه الي القسم الثاني من الامتحان :

ـ واذا قدم نسيب الميت لك القهوة ، فكيف تشكره ؟

فقلت :

ـ اقول له «محل عامر ، جعلها الله دائمة»

فضرب كفه على ركبته استهجانا ، وقال :

ـ ياضياع الاعوام التي قضيتها في المدارس • لو انك صرفتها في مسح الاحذية لكنت من المساحين الذين يشـــار اليهم بالبنان • وماذا لقنــك اساتذتك ؟ ما لي الومهم ؟ قد يكونون مثلك او اقل ، وقد يكون الذين علموهم مثلهم او اقل وانتظرت الى ان يفرغ من تأنيبي ، فسألته :

ـ اليس هذا الذى يقال في دار الميت ؟

فمسح وجهه بالرزانة ، وقال :

ـ كلا • عليك ان تقول لنسيب الميت حين تصافحه «من خلف ما مات»• ولمن يقدم لك القهوة «العوض بسلامتك»

ثم ودعني وهو يردد :

ـ يا لك من غبي ، يا لك من حمار !

* * *

صاحبنا الذى احدثك عنه في الاربعين من اعوامه تقريبا ، ولكنه يقسم انه لم يكمل الثلاثين فان استوضحته ـ ضبطا للحساب ـ عن السنة التي رأى فيها النور لاول مرة ، لم يتمكن من الجواب •

اما هيئته ، فليس فيها علامات فارقة ، فلو مزجته بسائر مخلوقـات الدنيا ، لم تستطيع ان تميزه بعد ذلك •

كنت اراه صباح كل يوم ذاهبا الى عمله ، وعلى ظهره أو في يده سلة تحتوي على رأسماله من البضاعة ، فأحييه متى تطلع الي ـ وانا استثقل ظله دون داع ، وأتمنى من صميم قلبي ، ان يمر فلا يلتفت الي ، فأتخلص من تحيته وصارحني هو ، بعد ان تمكنت بيني وبينه عرى الصداقة ، بان شأنه معي لم يكن يختلف عن شأني معه ، فقد كان يشكر ربه ، اذا لم

يرني . وكان معظم الاحيان ، يلعن الساعة التي اكترى فيها الغرفة التي يسكنها ، لانه مضطر الى المرور أمام بيتي يوميا ورؤيتي

فكيف تصادفنا ؟

كنت جالسا اصيل يوم ماطر على الباب ، وانا امتع العين بمنظر الغيث المنهل . ولهذا المشهد تأثير عميق علي ، لا ادرى اصله . فمتى اخذت السماء بالهطلان تركت عملي ،مهما عظم ، ووقفت محدقا الى الافق ،فتذهب الساعة او الساعتان وانا على ذلك ، دون ان اشعر بأي ملل .

كنت في جلستي تلك ، واذا بصاحبنا عائد من عمله . ووصل الى حيث انا فتدافع المطر بشدة ، كأن الخزان الذى يضمه قد تحطمت جدرانه . فلم يجد صاحبنا ندحة من الالتجاء الى بابي لوقاية بضاعته اولا ، وثيابه ثانيا .

وافسحت له مجالا ، وقدمت له كرسيا ، وعرضت عليه ان يخلع معطفه لينشفه ، ناسيا كرهي له .

وشكرني هو على اهتمامي به ، ناسيا ان وجهي لايروقه .

وكان لابد من الحديث ، فبدأته بصفتي صاحب البيت . وكان الطقس موضوعه الاول ، ثم امتد وتشعب ، وتناول سائر الموضوعات من تافهة وسخيفة .

وتلاشى من فؤادي شعوري السابق نحوه ، وحلت محله عاطفة من الوداد الصادق

واضمحل من قلبه نفوره مني واضمر لي الصداقة الراسخة .

وحان ميعاد العشاء ، فنهض يود الانصراف ، فلم اتركه .

اول ما واجهني منه وهو يحدثني ، جهله الفاضح الذى يشمل جميع نواحي الحياة بلا استثناء . ثم كذباته المتتابعة المتناقضة .

وارضاه مني تظاهري بتصديقه ، وهز رأسي بين الحين والاخر ، اندهاشا لترهاته ، وتشجيعي له على المضي في كلامه ، واسئلتي المتوالية المغلفة بالبساطة .

واستخلصت من حديثه ، مراحل حياته ، وهذه هي كما هي ، لا كما اخبرني عنها :

هو من عائلة ما تزال مضرب المثل في الفقر في بلدته . كانت امه تساعد جارة غنية لها في مهام البيت ، لقاء اجرة زهيدة ، وكان والده راعيا يخرج الى عمله في الصباح ، ولا يعود الا مساء

وكان لصاحبنا ستة اخوة من كبير ومن صغير هو اوسطهم

اما ارزاقهم الثابتة ، فالدار التي يقيمون فيها ، وهي اشبة ما تكون بالاسطبل ، جدرانها لم تتهدم شفقه على هؤلاء الصغار . وماتت امه ، وهو في العاشرة من عمره تقريبا ، ولحق بها رب البيت بعد سبع سنوات . وشب الاولاد كما شاؤوا ، فاصبح ثلاثه منهم رعيانا ، واثنان فلاحين ، وواحد اسكافيا . وخدم الحظ صاحبنا ، فاشفق عليه رجل غني في البلدة ، فاستخدمه في داره ، فتولى الخدمة بكل حماسة وتعلم منها كثيرا من المهن . فكان يرعى الغنم في الربيع ، ويفلح الارض في الخريف، ويدلك السطوح في الشتاء ، ويحصد القمح في الصيف ، وغير ذلك من الاعمال البيتية . وعزم اخ للغني المذكور على السفر الى اميركا ، فطلب من صاحبنا ان يرافقه على ان يؤدى له الناولون فقبل وحل صاحبنا في بلاد اميركا ، فاحترف بيع «الخردة» في الاسواق ، وهي التجارة التي ابتدأ بها قدامى المهاجرين الناطقين بالضاد فلم ينجح ، فنصحه احد معارفه بان يشتغل عاملا ، فاشتغل، ثمانية اشهر ثم ترك عمله ، واشترى بما وفره من المال ، بعض المتاع

الرخيص ووضعه في السلة واخذ يطوف بها على البيوت ، ويبيع منها ويربح ما يقوم بأود معاشه .

هذه سيرة حياته الحقيقية . اما سيرة حياته التي يرويها هو ، ففيها أشياء هامة من معارك دموية ، الى مساجلات شعرية ، الى مخاطرات غرامية ، الى اخرها مما هنالك من الخزعبلات .

على اني اريد – اعترافا بالحق – ان اضع في سمعك هذا السر ايها القارىء الكريم . لك ان تجعل حياة صاحبنا قسمين : القسم الاول من يوم ولادته الى يوم تعارفي به .

والقسم الثاني من تعارفي به ، الى حين كتابة هذه السطور .

واليك الايضاح :

انا أعيش في ضاحية من ضواحي المدينة ، بعيدا عن الاصحاب . اقضي معظم اوقاتي بين الاوراق والمحابر ، فلا غرو اذا رانت علي موجه من الكابة ، انتبهت اليها منذ مدة . فراعني احتلالها اياى . وبينما انا ادرس افضل وسيلة لاتصائها عني ،تكرم علي القدر ، وارسل صاحبنا المذكور ، فادركت منذ الجلسة الاولى انه مادة خام ، انه قابل للتكييف ، فرحت انفخه وكلما صدق انتفاخه شعرت بارتياح ، هو ارتياح المجرم الذى يقف على رأس ضحيته ، ليمتع نفسه برؤية انفاسها تتلاشى كان صاحبنا على استعداد للغرور ، فقدمت اليه ما شاء منه ، او بعبارة اصح كان غروره مضطربا ، فنظمته ، وجعلت له قواعد وقوانين .

وبات المسكين يعتقد ان الدنيا كانت تنكر مكانه،واني انا الوحيدالذي يقدر نبوغه بعض التقدير لا كله ، فاني احيانا اتظاهر بالتردد في الاقرار بعبقريته .

اتتعجب من غرور جاهل ؟ ان الجهلاء اسرع الناس الى الغرور

في احدى جلساتي مع صاحبنا ، قال في جملة حديثه :

ـ كنت مرة ارعى قطيعا من الماشية في البرية ، فابتعدت عن مطرحي المعهود ، فضللت طريق العودة ، وحرت بأمري ، واخيرا تخيرت وجهة سلكتها متكلا على الله ، فوجدت نفسي بعد ساعتين ، مطلا على قبيلة بدوية كبرى ، وكانت الخيام تملأ السهل امام عيني ، فسقت الغنم ، وقصدت اعلى خيمة ، وهي خيمة الامير ، فرحب بي ، ودعاني الى ضيافته وامر عبيده بان يعتنوا بماشيتي • وبسطت له قضيتي ، فافادني بان بلدتي بعيدة مسير يوم • ولما طلبت منه ان يسمح لي بالرجوع ، اقسم يمينا معظمة ان لابد ان أبيت عنده ثلاثة ايام • وكان كل ليلة ، يدعو اعاظم رجال القبيلة للسهرة في خيمته ، فاظل احدثهم الى ان يطلع الفجر ، ولو رميت الابرة في اجتماعاتنا لسمعت رنتها •

فقلت له :

ـ اصحيح ما تقوله ؟ لقد مضت علي عشرة اعوام ، وانا انقب عن رجل عاشر البدو ، واختبر لهجتهم •

فاصغى اتم الاصغاء وسألني :

ـ لماذا ؟

فاجبت :

ـ انت تعلم اني فتى اكتب في الجـرائد ، واخطب في الاجتماعات • وكتاباتي لاتكون بالكلام الدارج ، بل باللغة النحوية • اتعرف ما هـو الكلام النحوى ؟

فبادر حالا الى جوابي :

ـ كيف لا ؟ ان النحوى هو الحديث الصعب الذى لايفهمه الناس

فامسكت بزنده مصادقا ، وقلت :

ـ نعم ، لقد حزرت ،وعليه ، فانا مضطر الى استشارة رجل يكون قد خالط البدو ، لان البدو هم الذين يعرفون النحو الاصلي اما كلامنا نحن ـ كلامي وكلامك ـ فلا معنى له ولا طعم ، ولو منحني الله مثلك منذ سنوات، لاتيت بالعجائب

وسكت ، كأني افكر بأمر ذي خطر ، ثم قلت :

ـ ولكني اخشى ان يخيب الامل الذى شيدته عليك ، فمن يضمن لي انك تجيد كلام البدو ؟

فقاطعني قائلا :

ـ اتريد ان لا احدثك الا كما يتحدث البدوان ؟

فاجبت :

ـ لا ليس هذا ما اريد ، بل اريد ان تفسر لي الكلمات التي علي حلها

فقال :

ـ لبيك يا «هب الريح»

فمددت له كفي شاكرا ، وقلت :

ـ خذ مثلا «هب الريح» الا تعتقد انها افضل الف مرة من يا رجل او يا صديق او يا فلان ؟ غير اني ارجع ، فاطلب منك ان تسمح لي ان اتشكك في صدق القصة التي رويتها ، فان اكدت انها جرت ، فلم لاتروي لي حادثة بدوية أخرى لتكون بمثابة برهان على انك لم تبالغ في رواية ضلالك عن الطريق ؟

فلم يتردد لهذا الاحراج ، وقال بعد اناشعل لفافته :

ـ في نفس الليلة التي وصلت فيها الى تلك القبيلة قدم بدوى شاكيا بان رفيقه سرق منه ليرة انكليزية ، وهو نائم ، فطلب الامير ان يؤتى بالسارق، فجيء به ينكر الذنب الذي يعزى اليه ، فامر الامير بان يحمى «الصاج»وهو قطعة كبيرة مستديرة من النحاس ، ولما غدت حمراء كالجمر ، قدمها الامير للمتهم ليمر عليها لسانه ، وهذه عادتهم في تمييز البرىء من المجرم ، فان احترق لسان المتهم ثبتت عليه الجريمة ، وان ظل لسانه سليما ، فالمعنى انه بريء • وفتح البدوى فمه واخرج لسانه ، ومر به على الصاج مرارا، فسمعنا له «تشتشة» ثم اراه للحضور وهو سليم • فقال له الامير اذهب فانت بريء • ثم التفت الي ، وقال بماذا تشير علينا يا «هب الريح» انجاري هذا الذي اتهمه زورا وبهتانا ؟ فاشفقت عليه ورجوته بان يعفو عنه هذه المرة اكراما لي •

* * *

وحدثت الاعجوبة •

فامسى صاحبنا ، منذ ذلك الحين ، بمثابة قاموس لي ، لايكتفي مشقة تقليب الصفحات • يكفي ان اتلفظ بكلمة نحوية صعبة ، ليقدم تفسيرها ، ويصحح كيفية التلفظ بها •

ويسرني ان اثبت في هذا المجال تقصيري وسبقه فقد كنت اصرف الدقائق الطويلة ، وانا « اخترع » كلمة نحوية فاذكرها له ، فيشرحها لي فورا بالتفاصيل الوافية •

الكلمة الاولى التي اخترعتها هي «سرفقندتان» فكان معناها البدوى عند صاحبنا «النسر الذى لايزال فرخا» وتتابعت على اثرها ابتكاراتي فكانت مثلا :

«قطرياز» ومعناها ضوء الشمعة •

و «بستنوش» ومعناها الخبز اليابس

وكنت اذا لم اجد في نفسي جلدا على تركيب الكلمات ، سألته عن الكلمات الدارجة ، ففسرها لي

فكلمة «المها» معناها بالنحو الفصيح ورق الشجر الاخضر

وكلمة «الوجد» معناها العين العوراء

وكنت استفسره عن كلمات اجنبية ملفوظة بصيغة عربية ، فلا يضن علي بشرحها

سألته عن كلمة «اورنا» فبادر اولا بتصحيحها ، قائلا :

ـ هذه الكلمة لا يلفظها البدو كما تلفظها انت ، بل يلفظونها هكذا «قورنة» وهم يقصدون بها الماء الذى فيه رمل واصبحت بعد ايام ، ادفعه الى التفكير قليلا قبل الشرح ، وذلك بقولي له :

ـ اسمع سأتلو عليك كلمة صعبة جدا فلا تسرع الى تفسيرها ، بل اعمل ذهنك فيها • اتعرف ما معنى كلمة «انتيبكتر» ؟

فيسكت لحظات ، ثم يقول لي :

ـ صحيح ان هذه الكلمة صعبة جدا ، وهي نحوية قديمة ، انتظر علي دقيقة •

ويضع اصابعه على جبينه ، وتبدو على وجهه دلائل الاجتهاد ، ويلبث هكذا دقائق ، كأنه يبحث في زوايا مخه عن الكلمة الى ان يجدها ، فلا يبادهني بها ، بل ينتظر دقائق اخرى ، كأنه ينفض العث التي كادت تأكلها وهي في مخبئها من دماغه ، ثم يقول لي وهو يبتسم :

ـ ان هذه الكلمة معناها «المعقد الهزاز»

واحاول ان اكافئه على مجهوده الفكرى ، فأقول :

ـ يا خبيث ، انك منتهى الذكاء ، لقد بحثت عن هذه الكلمة في الكتب التي عندى ، فلم اعثر عليها ، وعرضتها على الصحفيين ، فلم يدركوا معناها فمن اين لك تفسيرها ؟

فيجيبني :

ـ من البدو ، من البدو يا صاحب

وكنت ، مرارا ، قليلة ، اخالفه في التفسير ، او اذا اغالطه فلا يعتذر ، بل يدور بي دورانا غريبا ، ويحطني حيث اراد ، وتكون العمليه على هـــذا النسق :

ـ ما معنى «هيلمان» ؟

فيكون جوابه :

ـ هيلمان هو الكفن

فاقول له :

ـ لا (وامط هذه الكلمة حتى تكاد تنقطع) هذه المرة اخطأت ، هيلمان معناها البرد

فيقول حالا :

ـ وما هو البرد ؟ أما سمعت المثل القائل «انالبرد سبب كلعلة» • وما هي العلة ؟ اليست المرض ؟ وما هو المرض ؟ اليس باب الكفن؟ اذن ، فالمعنى الحقيقي والنهائي للهيلمان هو الكفن •

وغدوت ، بعد ذلك ، اذا اضطررت الى تعريفه باحدى معـارفي او اصحابي اقدمه على انه استاذي في علم النحو

فترتسم على وجهه ابتسامة طويلة عريضة

وكثيرا مابلغت به الحماسة مبلغا دفعه الى تحميلي المنّة على مساعدته لي في مهنتي الادبية ، سيان عنده اكنا وحدنا او كان معنا بعض الرفاق ، فيهتف:

ـ ماذا كان موقفك لولا وجودي ؟ فاشكره تعالى على انه ارسل اليك من يصحح لك عباراتك ، ويعلمك الكلمات التي انت بحاجة اليها .

الحياة تسير الى الامام ، ومن لا يرافقها في مراحلها ، أعرضت عنه وبخلت عليه بمنحها .

هذه حقيقة ليس من ينكرها . وبما اني وبما ان صاحبنا من ابناء الحياة ، فمن البديهي ان نتقدم معها ، وان لا تقتصر صلاتي معه على الكلمات الصعبة وتفسيرها

وكانت الخطوة الثانية التي خطوناها معا : الشعر

فكنت اطلب منه شرح البيت الغامض ، فيؤدى المهمة بطيبة خاطر .

فبيت امرىء القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

شرحه لي هكذا :

ـ يقول الشاعر ان السفر من دمشق الى النبك صعب جدا ، فالخطر على الدابة كبير اذ يمكن أن تصطدم بحجر فتقع ، ويقع معها راكبها ، ولو كانت هذه الدابة من الحيوانات العادية لهان الأمر ولكنها فرس أصيل ، والعرب يعتنون بالجياد بعنايتهم بنفوسهم ..

ويتابع التفسير ، ويطول الشرح ، فيصحبه بحكايات ونوادر ، الى أن اشير اليه اشارة تعني اني اكتفيت ، فيسكت وكانت خطتي معه في الشعر كخطتي في الكلمات ، أحمله أحيانا ، على التفكير ، فأقول له :

ـ ان هذا البيت صعب تفسيره لانه قديم عميق ، فلا ترتجل شرحه : بل ادرسه جيدا •

فيوافقني ويصمت قليلا ، قبل أن يشرع في « فك البيت » •

قلت له مرة :

ـ راهنت صديقا على انك عاجز عن تفسير هذه الابيات الاربعة التي سأتلوها عليك ، ولا عار اذا عجزت ، فقد عجز قبلك أمير الشعراء أحمد شوقي •

فابتسم استخفافا بعقلي ، وقال :

ـ ما هي الابيات ؟

فانشدت :

ان التجارة فوق وقع الحافر فكأنها بمناسر ومحاجر
كم تستطيع من البيان حصانة وبيانها فوق السحاب السافر
لا تتخذ أكل المحابر خطة الا اذا حطت عليك سرائري
جل في الهناء ولا تبادر عندما يبدو الاباء على التراب الناحر

فقال :

ـ حقا انها أبيات صعبة ، ومعانيها خفية ، ولكنني لست عاجزا عن تفسيرها ، بل أطلب مهلة عشر ساعات ، وغدا ان شاء الله ، آتيك بها محلولة

وجاءني في الميعاد الذي ضربه لي ، فسألته :

ـ هل فسرتها ؟

فأجاب :

ـ كيف لا ؟

قلت :

ـ ثكلتك امك من نابغة لا يشق له غبار ، لقد ربحت الرهان من صديقي

فقــال :

ـ منك الابيات ، ومني تفسيرها

فتلوتها من جديد ، وكان هذا تفسيرها :

ـ ان التجارة أصبحت في هذه الايام ، من الاعمال التي يقدر من يشاء ان يميل اليها ، لانها لا تقتضي الا الرأسمال القليل ، والرأسمال القليل يقدمه التجار الذين يملكون البضاعة ..

فقاطعته بقولي :

ـ يكفي ، يكفي ، كيف عرفتها ؟

فأجابني :

ـ كل شيء في هذه الدنيا مغطّى بقشة ، فاذا تمكنت من ان تزحزح القشة ، بدا لك ما تبغي ، وهنا السر فان الذين يستطيعون ذلك ، قلائل

* * *

وكانت « العتابا » الخطوة الثالثة ، فقد تأملته ذات يوم ، وقلت له :

ـ ان البدو مشهورون بنظم العتابا ، ومن غرائب الغرابة ان تكون ـ وانت على ما انت عليه من الذكاء ـ محروما من هذه الموهبة

فاعاد النظر فيّ بدوره ، وفي نظراته العتاب المر ، وقال لي :

ـ وكيف اجزت لنفسك اتهامي بذلك ؟ ليتك كنت معي حين كنت انازل كبار القوالين ، فما هي الا دورة أو دورتين حتى يعلنوا انكسارهم ، وينسحبوا من الميدان . ان العتابا ، تحتاج ، يا صديق ، الى صوت حنون ، وقد كان صــوتي يرمي الطير في المساء ، ولكن الدخـان ـ لعنة الله على

السكائر ـ الدخان أهلك صوتي • ومع ذلك ، فلا تزال فيه بقية من الحنو القديم

قال هذا ، ووضع كفه على خده ، كما يفعل القوالون ، وغنى بيتا من العتابا

ماذا قلت ؟ غنى ؟ استغفر الله العظيم ، هي عادة السرعة في الكتابة • كان من الواجب عليّ ان اقول انه نهق بيتا من العتابا ، فان الفرق بين صوته وصوت الحمار لم يكن الا في الضخامة فقط

وامسى لا يحدثني الا عن العتابا ، وعن المسابقات التي خاض غمراتها ، وعن قصبات الفوز التي احرزها

وصارت العتابا عنده مقياس الذكاء ، فان اخبرته عن شاعر شهير ، كاتب معروف ، سألني :

ـ أهو ينظم العتابا ؟

فان اجبته ان العتابا عنده كشربة الماء ، اقر بشاعريته ، والا فلا

وقد ظننت ـ وبعض الظن اثم ـ انني بصفتي صاحبه ، بمنجاة من حكمه الصارم • ولكن لا • لقد وزن فطنتي بالميزان الذي كان يطبقه على فطنة غيري • وصارحني بانه يضمر لي الاعتبار كصاحب ، اما شاعريتي فمسألة فيها نظر ، فهو لم يسمع مني بيتا من العتابا حتى الآن ، ولم يتصل به اني نازلت في حياتي قوالا وغلبته

وقد يظن القارىء ـ وبعض الظن اثم ـ ان صاحبنا من هؤلاء الذين يرتجلون الشعر العامي : سليقه شعرية ، ما في الأمر شيء من هذا • صاحبنا ابعد الناس عن هذه التهمة • وكل ما هنالك انه يحفظ تقريبا عشرين بيتا من العتابا ، سمعها من بعض الزجالين ، فادّعاها

وهو يستظهر بيتين من العتابا ، فيهما ترحيب بزائر ، وفي الشطرة الاولى منهما ، موضع خال لذكر اسم من الاسماء .

وبيتين ثانيين ينشدان في التوديع ، ويبتدئان باسم المسافر ، الى غير ذلك من العتابا الدارجة التي لاكتها الالسن ومجتها الاذواق

وقد ضمّ الى أملاكه الفكرية ، في المدة الاخيرة ، بيتا واحدا ، ثم يتسن له ان يكمله ، فجعله بمثابة لغز ، يطلب من غيره حله أو تكملته

زارني ، خطرة ، صديق أخذ يكرر هذا البيت البائر :

طرقت الباب حتى كل متني   ولمـــا كـــلّ متني كلمتني

وكان صاحبنا حاضرا ، فحفظه غيبا

ومر شهر على الحادث ، فحسب اني نسيت زيارة الصديق المذكور ، فقال لي :

ـ اني نظمت البارح نصف بيت من العتابا : عجيبة من عجائب الدهر ، لا اعتقد ان شاعرا على وجه الارض ، في مكنته اتمامه

فقلت :

ـ ما هو ؟

فوضع كفه على خده ، وعوى ما يلي :

طرقت الباب حتى كل متناي   ولمـــا كـــلّ متناي كلمتناي

فقلت بلهجة المستغرب :

ـ واين تخبىء هذه العبقرية ؟

فرفع اصبعه ، وأشار بها الى رأسه

★ ★ ★

وكنت ، بين الحين والآخر ، الفق بيتا من العتـابا ، واعرضه على

صاحبنا ، فيصدر فيه رأيه ، فلا اقول له اني انا الناظم ، بل انسبه الى رجل معروف ليكون له التأثير المرغوب

قلت له :

ـ اسمع هذه العتــابا التي نظمها مصطفى كمال باشا حين كان في الشام :

بريق البرق فوق البرق تسلاي   وصوت الرعد عند الرعد تسلاي
وزخ المطر رغم المطــر تسلاي   وطــار الوحل بجناب الفضـــا

فاهتز طربا لهذه المعاني الجميلة •• وقال :

ـ بالله اعد عليّ هذه العتابا التي استولت على عواطفي • ليت مصطفى كمال إنصرف الى العتابا بدل الحكم • الا تحفظ له شيئا آخر ؟

★ ★ ★

اما الخطوه الرابعة ، فكانت خطوة « المتفرقات » اذا جاز في استعمال هده الكلمة

اقلب جريدة ما ، واتظاهر بمطالعة خبر فيها ، ثم التفت الى صاحبنا سائلا :

ـ من هو اعلى رتبة الوزير الدانمركي أم القائد الاوسترالي ؟

فتلمع عيناه ببريق الزهو ، وينفض لسانه الجواب ، كأنه رئيس لتشريفات في دولة عظيمه

او أسأله :

ـ اي نهر اطول : الامازون ام بردى

او :

ـ اي بلاد اكبر الروسيا ام لوكسنبرغ

فلا يتردد لحظة

والجواب بحد ذاته لا اهمية عنده ولا عندي : المهـــم ان يسارع بمعلوماته

وليست امتحاناتي له دائما سهلة ، فقد اضطر الى معرفة ما هو في منتهى الدقة ، فيتكرم فورا في افادتي .

وقد تقع تحت يدي قضية ، يحار في حلها أصدقائي المحامون ، فتكون حلولها مكدسه في رأسه كانه دائرة جهل متنقلة

أما في التاريخ ، فقد كان الاتفاق بيني وبينه كاملا : فالسيد نوح هو ابن صلاح الدين الايوبي ، ووالدته الملكة فكتوريا وبقية اخوته هم هابيل عليه السلام . وسلامه الحجازي المغني المعروف وجبران خليل جبران

★ ★ ★

العقل خير من المال

واذا كان القانون ينزل القصاص الشديد بالذي يسلبك ثروتك . فمن المعقول ان يكون اشد بقصاص من يحاول ان يسلبك عقلك

وانا لو صدقت صاحبنا ، لو صدقت مغامراته الغرامية ، لكان من واجبي ان اسلمه الى ادارة الشرطة

ولو صدق رجال الامن وشايتي لوجب عليهم ان يقسموا حياته الى دقائق ، وان يشنقوه ثلاث مرات ، في كل ساعة .

ان المرأة التي يسلط عليها خلابته ، لا تحبه فحسب ، وانما تجن به جنونا

اكرر ثانية : هذه العبارة هي لصاحبنا ، وليس لي فيها الا وضعها في قالب ، معقول نوعا ما

اما النساء اللواتي جنن به ، فقد نسيهن لكثرتهن . ومن يدري ؟

لعل صاحبنا غير كاذب ، فعديدات من النساء تغمرهن امواج الغرام ، فتكاد تغرقهن . فان فتشت عن السبب الذي دفعهن الى ذلك البحر العجاج أعياك لقــاؤه

بيد اني ، على الرغم من نيتي الطيبة ، ومن استعدادي لقبول الاكاذيب ، انك كل الشك فيما رواه لي من غرامياته

وقد تنزهت ، واياه ، مرارا عديدة ، وشاهدتنا الصبايا من جميلات ونسيعات ، فلم ار واحدة منهن ، تلتفت اليه التفاتة خاصة

والحادثة الغرامية الوحيدة التي تعرّض لها ، وكنت من شــهودها الاحياء ، هي هذه :

من معارفنا شاب اسمه دمياط ، احاديثه دائما وصف لجمال هــذه الفتاة التي رقص معها في النادي الفلاني ، او ثناء على تلك الحسناء التي ارسلت اليه رسمها ، الى غير ذلك مما يشبه ذلك

وهو يلتفت ، بعد انهاء حكاياته الى صاحبنا ، ويقول له ما يلي تقريبا :

ـ اني اشفق عليك ، فان وجهك تنفر منه النساء نفور السليم من الاجرب . والحياة التي تخلو من الحب حياة عقيمة .

وانا لو كنت مكانك لانتحرت

فيهمّ صاحبنا برواية ما جرى له ، فلا يبتدىء بقصة حتى يكذبه دمياط ، ويكون لي من جدالهما ما يسليني

وقال لي صاحبنا مرة :

ـ لقد اوشك دمياط ان يفلق صبري ، فساعدني عليه

فسألته :

ـ ماذا ؟ اتنوي ان تغريه لان النساء تعشقه ؟

فاجابني :

– كلا ، وان كان يستحق الضرب في كذباته . بل اريد ان احمله على تصديقي حين أبسط له غرامياتي ، وهـذا سهل اذا لم تبخل عليّ المعونة

فقلت :

– ابي رهن اشارتك

فقال :

– اخبره ، متى جاء ، ان صبية طلبت مشاهدتي بألحاح . وصف جمالها بما اعهده فيك من الذكاء ، وانسب اضطرابها ، وهي تتلفظ باسمي ، الى جنونها بحبي

فقلت :

– امرك ، ولكن تعال نتفق على التفاصيل ، فلا يشوه التناقض أقوالنا . أيروقك أن تكون الصبية سمراء اللون سوداء الشعر ، معتدلة القامة ؟

فأجاب :

– ابي افضلها شقراء طويلة ، زرقاء العيون ، على كتفها فرو من هذه الفراء الغالية الثمن ، دلالة على انها من صاحبات الثروة ، واذا رأيت ان تكون لها سيارة جديدة ، كان شكري لك أكبر .

* * *

وقدم دمياط ، فأسرعت الى مقابلته ، ورويت له أسطورة الشقراء ، مالكة السيارة والفرو

فقال لي بعد ذهول قصير :

اذن فلابد ان تكون مغامراته صحيحة ، فان قلوب النساء طلاسم ليس

من يحلها

واتشر الخبر ، خبر الشقراء بين الاصدقاء انتشار الوباء ، اذ كان له ثلاثة يهتمون باذاعته :

دمياط

وصاحبنا

وأنت

وكان كل من هؤلاء الثلاثة يتفنن في وصف الصبية ، ويسابق زميليه الى اغداق مظاهر الحسن عليها

* * *

واستولت على صاحبنا ـ بعد ذلك اليوم ـ يوم الشقراء كما سميناه ـ موجة من الكآبة ، كأن هما اناخ على صدره ، وشردت نظراته ، وقل كلامه ، وحاولت ان افرج همه المجهول ، فقال لي :

بالله اتركني

فطالبته بأن يكاشفني بسره ، والا ارتبت من صداقته ، فقال بنغمة تشف منها اللوعة :

ـ هي الشقراء يا صاحب ، فقد ذهبت الى دارها في الاسبوع الماضي ، فدعتني الى النزهة خارج المدينة في سيارتها ، وشجعتني أثناء الطريق على الزواج بها ، فأن ألسنة الناس لا تشفق عليها ، وهم يشهدون صلاتنا الغرامية . وأنا لا أدري ما يجب أن أفعل . فبماذا تنصحني ؟

* * *

الذكاء ـ كما لا يجهل القارىء ـ موهبة عظيمة جدا ، ولعلها افضل المواهب التي يمنّ بها الله على الانسان

والذكاء ـ الذكاء الخارق الذي يتمتع به صاحبنا ـ ومسؤولية هذه العبارة أيضا عليه لا علي ـ لا يقتصر على تفسير الشعر ، وارتجال العتابا واستهواء الحسان صاحبات السيارات ، بل يتناول ناحيــة أخرى هامة تلك هي « الجرأة امام الحكام » وهذه الجرأة لازمة لزوم المـاء للمرء فقد تكون أنت ذا الحق ، ثم تجبن عن التصريح به ، فيضيع عليك .

ولماذا تجبن به ؟ لانك غير ذكي

وهذه الفلسفة التي يدمغني بها صاحبنا ، ترافقها الامثال . ومنهـا الحادثة التي قصّها عليّ أكثر من عشرين مرة ، وفي كل مرة كان يغير فيها ويحور بحيث تختلف عن سابقتها ، وهذا أحسن شكل منها :

عزم صاحبنا على السفر مرة ، فاضطر الى تهيئة المعاملات المطلوبة من كل مسافر ، فاعدها كلها بسهولة ، ولم يبق الا التأشير النهائي عليها من « مجلس المبعوثين » فقدمها للمستخدم ، فظلت عنده ثلاثة أيام ، أرجعها اليه بعدها ، معتذرا ان الموظف الكبير لم يشأ التأشير عليها . فطلب اذنا بمواجهة الموظف ، واطلعه على الامر ، فعاد الى الاعتذار بان المعاملات تنقصها امضاءات المختار والطبيب والشرطي . فانتزع صاحبنـا اوراقـه من يد الرجل ، وذهب حالا الى السراي ، الى رئيس الجمهورية ، فكان مسافرا ، فطلب رؤيه وزيره ، فأفادوه ان وزير الميسرة مريض ، فأصر على مقابلة الوزير الآخر ، وزير الميمنة ، ودخل عليه وصرخ فيه :

ـ دفعت الضرائب المتعددة لكي تخدموني بكل عناية ، وها أوراق معاملتي ينقضي عليها أكثر من أسبوع وهي على حالها

وطرح الاوراق امام الوزير ، فاسرع المســكين (أي الوزير)

والتقطها ، وكتب عليها ما تجب كتابته ، واعتذر من صاحبنا ، ودعاه الى تناول فنجان من القهوة ، فأبى

ويعلق صاحبنا على هذه الشجاعة بقوله :

ـ فلو كنت أنت مكاني ، أتجرأ على ما جرؤت عليه أنا ؟ اني اؤكد لك انك ما تكاد تبصر الوزير حتى تسرع الى الهرب •

فاهز رأسي متعجبا ، واسأله :

ـ ولكن كيف عرفت ان الوزير الذي قابلته هو وزير الميمنة ؟

فيجيبني :

ـ تناول مني الاوراق باليد اليمنى ، ووزير الميسرة يمسك الاشياء باليسرى

واعترضت عليه يوما وهو يروي لي قصة الوزير بان هذه الشجاعة التي ابداها قد يكون سببها ان بينه وبين الوزير صداقة قديمة ، ترجع الى أيام المدرسة

فقال لي :

ـ هب ذلك صحيحا ، افتكون لي دالة سابقة على قبطان المركب الذي سافرت فيه ، وهو اجنبي ؟

ثم اعتدل على الكرسي ، وتابع :

ـ كان ذلك المركب يحمل قطنا ، ويظهر ان احد المسافرين ، رمى بعقب السيكارة دون ان يطفئها ، فشبت النار في القطن ، واسرع البحارة فاخمدوها • واعلن رجال المركب ، على اثر ذلك ، ان التدخين ممنوع في « العنبر » فساءني هذا المنع ، فصعدت الى مقصورة القبطان ، وافهمته ان القرار غير قانوني ، وان التدخين مباح في كل مكان • فمشى بي الى ناحية ،

ووافقني على ما قلت ، ورجا مني ان اكتم ذلك عن بقية الركاب ، لئلا يعودوا الى التدخين ، وسمح لي انا ان ادخن انى شئت ..

والحق اني لا اعلم ما في الحادثتين من الصحة ، ولا اريد ان اجازف بحكمي . غير اني اذكر حادثة كنت من « ابطالها » .

ورد عليّ الخبر مساء يوم بان صاحبنا في السجن . فركضت الى دائرة الشرطه . وكان مديرها رجلا لطيفا كريما ، فاطلعني على ان صاحبنا تشاجر مع أحد رجال الشرطة ، فاغلظ له الكلام ، وان العقاب المفروض ، ان يظل في السجن بضعة أيام ، فأخبرت المدير عن حالة السجين ، فضحك ، وقال :

ـ ما دام الرجل بسيطا الى هذا الحد ، فسأطلق سراحه بعد ساعة ، وآمل منك ان توصيه ان لا يرجع الى مثلها .

فشكرته وودعته

وخرج صاحبنا غير عالم بوساطتي ، فقص عليّ تفاصيل ما وقع له هكذا :

ـ لما زجوني في اعماق الحبس ، امرتُ السجان ان يدعو الموظف الكبير ، فلما وقف أمامي ، صرخت فيه ان عمله ذو نتائج وخيمة عليه ، وان القانون لا يجيز له مطلقا ان يضعني وراء القضبان الحديد . فأدرك حينئذ انه اعتدى على رجل لا يمكن الاعتداء عليه . فمد يده الى جيبه ، وسلمني مفتاح السجن ، ورغب مني ان اذهب الى بيتي آمنا مطمئنا

* * *

اصابني شتاء عام ، ألم في كتفي ، حار في تعليله الاطباء

وعادني صاحبنا ، فقلت له مازحا :

ـ لو جمعت المدة التي قضاها الاطباء الذين اعتنوا بي في المدارس لبلغت مائه عام أو تزيد • ومع ذلك ، فلم يصف واحد منهم دواء يشفيني ، وما رآني منهم طبيب الا تمنيت ان اكون في مضرب من مضارب البدو • ان اجهل جاهل من هؤلاء اعرف من جميع الاطباء • وكل داء له عندهم دواء بسيط طبيعي فيه البرء التام

وحركت كلماتي الوتر الحساس في قلب صاحبنا ، فقال ، وفي صوته نغمة التعنيف :

ـ ومن أنا ؟ الا تدري اني ادرى الناس بأسرار البدو • ؟ صف لي ألمك وأنا أصف في الحال ما يشفيك منه

فشرحت له أعراض الداء ، فسألني :

ـ هل اجروا لك عملية الزائدة ؟

فقلت :

ـ منذ عشرة أعوام

فقال :

ـ لقد خيطوا لك الجرح « بالمقلوب » وهذا الالم الذي في كتفك ، منه

فسألته :

ـ ماذا تعني ؟ أخيطوا الجرح من فوق الى تحت بدلا من تخييطه من تحت الى فوق ؟

فأجاب :

ـ كلا ، بل خيطوه بالعرض

وتمهل لحظة ، واردف :

ـ غير ان الامر بسيط

واقترب مني ومدّ يده الى مكان الالم ، وضغط بأصابعه ضغطا قويا ، فشعرت كأن روحي تزهق ، وقلت لأتخلص من اصابعه :

ـ زال الألم ، اتركني

وصدق صاحبنا

ووجدني في اليوم الثاني ، لا ازال قيد الفراش ، فأراد ان يضغط على كتفي من جديد ، ليمحو آخر اثر من الوجع ، فهمست في اذنه :

ـ شكرا لك . البارح زال الالم تماما . واذا كنت لا افتأ في السرير فلأن بقائي هنا ، وتظاهري بالمرض يريحني من العمل .

ومضى في تصديقه ، وغدا يذكر هذه الحادثة في كل مجلس ، ويصف الادوية لكل مرض ، ويتطوع لشفاء كل عليل

على أن هذه القضية ـ التطبيب على الطريقة البدوية ـ جرّت وراءها ذيولا . ولو قدّرت ان سيكون لها هذه النهاية ، لقطعت لساني قبل ان اطلب من صاحبنا تطبيبي

نسكن قبالة دارنا ، عائلة مشهورة ، منها فتاة في مقتبل العمر ، جميلة القسمات ، ممتلئة الجسم ميالة الى السمنة ، مخطوبة من شاب من معارفها ، ابدى اعجابه بنحافة ممثلات السينما فأحبت ان ترضيه ، فذهبت الى طبيب وطلبت منه ان يجهز لها دواء يخفف من سمنتها ففعل . ولكن الدواء لم ينجح ، وذهبت الى آخر ، فكان كزميله السابق ، وانتهى اليها أخيرا خبر صاحبنا المطلع على علاجات البدو

واشترت العروس هـدية لطيفة لصاحبنا ، وقصدت اليه تصحبها حالة لها

ولم يخيب صاحبنا أمل الفتاة • ووعدها بان يعدّ لها في اليوم التالي ، دواء ناجحا يستعمله البدو

وشربت العروس جرعة من السائل الاسود الذي قدمها لها في آنية • وما كاد يستقر في جوفها حتى أصابها وجع ممض في امعائها

وخاف اهلها ، فاستدعوا طبيب العائلة ، فاعلن بعد فحصها ، ان في دمها بدء تسمم ، وخشيت هي لوم اهلها فلم تصرح بالحقيقة ، ولبثت رهن العلاج أكثر من شهر • وكانت تلك الجرعة ، الاولى والاخيرة التي تناولتها من الدواء

هذه الحادثة روتها لي خالة العروس بعد مدة طويلة ، فخفت ان يكون صاحبنا ، قد وصف أدوية مثلها لآخرين ، فدعوته وسألته عما اعد في تلك القارورة ، فأجابني :

ـ انه دواء مركب من قطران وماء مالح وأشياء غيرها احتفظ بسرها

فاطلعته على مرض العروس ، واخبرته ان التطبيب بدون رخصة ممنوع قانونا ، وان أقل جزاء يناله الطبيب هو السجن ، ولم اتركه حتى أقسم لي ان لا يعود الى اعداد دواء على الاطلاق ، ولو مات الناس كلهم من الاوجاع

* * *

يتضح مما سبق ان صاحبنا كان قد حضر عدة حوادث دموية • ولزيادة الايضاح انص على انه كان فيها كلها ، البطل الذي يدور عليه الاخذ

والرد • والمسؤولية ـ اكرر ثالثة ـ في هذا التأكيد ترجع اليه ، فأنا انما اعيد عبارته

لقد سطا عليه اللصوص ، وفي كل سطوة ، كان ينتظر الى ان يحسب اللص انه في مأمن ، فيهجم عليه ، ويأخذه اسيرا ، فاذا مانع أو حاول الدفاع عن نفسه ، رفعه بيديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الارض بكل ما وهبه الله من القوة ، فرض عظامه رضا

ولصاحبنا عادة من أفضل العادات هي انه يوافقني على ما اطلبه منه ، ولا يخالف لي رغبة في حوادثه

اليك جلاء ذلك

يبدأ مثلا كلامه على الشكل التالي :

« كنت في ليلة نائما في ظل شجرة ، فاذا برجل يرميني بحجر من بعيد ••

فأقاطعه ، واقول له :

ـ قم واقبض على تلابيبه

فيقول :

ـ هكذا فعلت

ثم يتابع قصته

« وما ان امسكته بتلابيبه صرخ من اعماق فؤاده ، فاجتمع الجيران

فأقاطعه من جديد بقولي :

ـ ارفعه بيديك واضرب به الجمع

فيقول :

ـ هكذا فعلت

ومجاراته لي توقعه في كثير من الاحيان ، في شراك ، لا يتخلص منها الا بعد جهد

كان يلفق لي قصة سقيمة ، ككل قصصه ، قائلا :

ـ سافرت خطرة ، من بلدة الى أخرى بينهما قاطع طريق مشهور يشرب الدم ، فما مر مسافر الا سلبه ما معه وقتله ، وخافت منه الحكومة ، فتركت له الحبل على الغارب ، وحذرني الناس من الرجل ، فلم اعبأ بتحذيرهم ، وسافرت متكلا على الله ، وليس معي من سلاح غير خنجر صغير . ولما وصلت الى نصف الطريق ، اعترضني الرجل ، وفي كتفه بندقيته ، وانذرني بان اترك ما معي من المال ..

فقاطعته أنا كما هي عادتي ، وقلت له :

ـ انتشل المسدس من جيبك ، واطلق عليه الرصاص

فقال كعادته :

ـ هكذا فعلت

فقلت له :

ـ آه يا كذاب ! منذ دقيقة قلت انه ليس معك غير خنجر صغير ، وها انا اشاهد معك الآن مسدسا

فقال :

ـ كان معي المسدس ، ولم انتبه اليه الا حين هدد الخطر حياتي

★ ★ ★

لم يؤثرني صاحبنا على غيري من المعجبين به ، الا لأني قدمت له الحجج على الوداد الذي يطويه فؤادي له ، ومنها هذه الحجة الناصعة :

كان يقص عليّ حادثة من حوادثه الدموية ، مختصرها انه منذ أربعة

أعوام ، قام بسفرة طويلة في داخل البلاد ، فوصل الى بلدة بعيدة عن العمران ، لبث فيها يومين ، ثم همّ بمغادرتها الى ثانية ، فنصحه سكانها بان ينتظر الى ان يجد رفيقا ، ففي الطريق قبيلة من الاشقياء القدماء ، يرحبون بكل زائر ، ويضيفونه عندهم الى ان يقتلوه ، والكيفية التي يستعملونها لقتله طريفة ، وهي انهم يعدون للضيف سريرا في أحد الاكواخ ، ومتى نام صعدوا الى سطح الكوخ ومعهم حجر كبير ، ففتحوا ثغرة في السقف مخصصة لذلك ، ورموا منها ما حملوه على صدر الضيف النائم فتتلاشى أنفاسه

وقال صاحبنا مبتسما :

ـ ولم احفل بالتحذير ، فسافرت وحدي ، ونزلت على القبيلة المذكورة . فاشترى مني اهلها شيئا من البضاعة . ولما حاولت متابعة السير ، رفضوا ان يسمحوا لي ، واعدوا الكوخ المعهود ، ودخلت ..

وجاء صبي صغير هو ابن ربة البيت الذي يقيم فيه صاحبنا ليخبره ان رجلا يسأل عنه . فوقف وقال لي :

ـ اني ذاهب لأرى من هذا ، وسأعود لاكمل لك الحكاية

فامسكت به من معطفه ، وقلت :

ـ لن ادعك تخرج من هنا ، ما لم تنه لي القصة . لقد شغلت بالي . اوتعتقد اني اتركك تحت خطر القتل في تلك القبيلة ؟ اني اود ان اقف على نتيجة تلك السفرة ، اسلمت منها أم طرحوا عليك الحجر الكبير فقتلوك . لينتظر زائرك . كملْ الحكاية وطمنْ لي خاطري

فبدت تجاعيد السرور على وجهه لهذه العناية به ، وشكرني على صداقتي الراسخة ، ثم قال :

ـ اين صرنا ؟

دخلت الى الكوخ ، ورأيت السرير ، فاحتلت الى ان أزحته عن مكان الكوة في السقف ، ونمت ، وسقط الحجر قربي في نصف الليل ، فلملمت بضاعتي ، وتركت تلك الارض

* * *

بينما كان صاحبنا في زيارتي ، منذ اسبوع ، سلّمني ساعي البريد مغلّفا ضخما فيه رسالة من صديق عزيز بعيد ، فطالعتها بشغف ، وعادتني نوبة من الحنين الى الايام السالفات ، فتجهم وجهي ، فحـــدق الي صاحبنا ، وقال :

ـ مالك ؟ ممن هذه الرسالة التي اقلقتك ؟

فاردت ان اخفف عني حزني بالهزل ، فاجبته :

ـ هي من مساهمي « بنك التقتير » في « هيئة الاستقلال الدولي » يطلبون مني ان ابحث عن رجل يتولى ادارة العمل فيه

فصدق قولي ، واستوضح عن الشروط المطلوبة ، فقلت :

ـ ان الشرط الاول صعب ، اما البقية فسهلة ، وهم لا يعلقون عليها كبير شأن ، الشرط الاساسي ان يكون الرجل صاحب لحية طولها شبر على الاقل . اما سائر الشروط ، فأن يكون من الاذكياء الذين يحسنون القراءة والكتابة

فسكت لحظات أجرى فيها ، ولا شك ، تقويما في نفسه ، وقال :

ـ ما رأيك ؟ الا اصلح لهذه الوظيفة ؟

فأجبت :

ـ كلا ، فما عندك الا شرط الذكاء ، وهو لا يكفي

فقال :

ـ لا اظن المدير بحاجة الى القراءة والكتابة ، ولي اسوة بمختار بلدتنا فهو مثلي ، ومع ذلك فان الارض ترتجف منه ، واذا نزل الى الشام ربط القضاء . اما اللحية فبوسعي ان اتركها لتطول ، وانا اعدك انها ، بعد مدة قصيرة ، تغدو وفق الطلب

فمانعت بعض الممانعة ، على الرغم من هذا التسهيل الذي قدمه . والحّ عليّ مهوّلا الامر بانني لن اجد افضل منه ، ومهامي لا تسمح لي بتضييع الوقت تفتيشا عن غيره

واخيراً رضيت

وأجدني اوقعت نفسي في ورطة ، فقد أخذتْ لحيته تنمو وتطول ، فهل بين القراء من يستطيع ارشادي الى وسيلة للخلاص مما تعهدت به ؟..

لمكان لي صديق

ما كدت استريح من وعثاء سفرة قصيرة الى داخل البلاد حتى رن جرس الهاتف على مكتبي

ـ ألو ، آلو

ـ آلو ، من انت ايتها الآنسة ؟

قالت :

ـ انا ممرضة في « مصح الشمال » طلب مني صديقك « فلان » ان ابلغك تحيته ورغبته في ان يراك هنا .

قلت :

ـ أفلان في المصح ؟ ما به ؟

أجابت :

ـ اجرى له الطبيب ، أول البارح ، عملية جراحية ، وهو الآن يستعيد عافيته

قلت :

ـ شكرا لك يا آنسة ، اني ذاهب لعيادته فورا

ووضعت السماعة مكانها

وغرقت في بحر من ذهول

صديقي فلان في المصح ؟

غريب أمره ، والله ، تركته منذ خمسة أيام وهو في ملء الصحة
– اني اذكر ذلك جيدا – فقد اتى لوداعي في بيتي حالما اتصل به عزمي على السفر

وارتديت ثيابي مسرعا ، واستلمت السيارة الاولى التي مرت بي ، وتوجهت الى المصح

واستعدت في الطريق ، مراحل الصداقة التي جمعتني به

عرفته في هذه البلاد ، مهاجرا ، يعمها كغيره ، لاحراز ما لم يستطع احرازه في وطنه • واسعفه الحظ ، فاستطاع ان يكدس في سنوات معدودة ، ثروة طائلة ، ولم يبطره الغنى ، فظل بسيطا في حياته وفي معاملته ، يقيم في غرفة من دار يملكها ، اكرى نسيبا له ما تبقى فيها من الغرف

هو طيب القلب ، لا يحمل حقدا على أحد

كريم الشمائل ، ما قصده قائم بمهمة خيرية الا ولبّاه راضيا ، ومن براهين كرمـــه ان الدفعات المالية التي كان يبعث بها الى أقاربـه ، دون استثناء في الوطن لم ينقطع لها خيط منذ أصبح قادرا على مساعدتهم

ثقافته ، على الرغم من انها محدودة تجملها مطالعاته المتوالية

من مآخذه القليلة عندي انه يميل الى العزلة والانفراد وقد جادلته مرة في هذه الناحية ، فكانت الغلبة لي اذ بينتُ له فضل الالفة ، وانتهى الجدل باقراره انه يحسدني على روحي الاجتماعية

ووصلت الى المصح

وصعدت الى الطابق الثاني حيث كان سريره

فرأيت على الباب ورقة ممضاة من الطبيب تحظر زيارة المريض

فوقفت ، وما لبث ان انفتح الباب ، وخرجت الممرضة ، فسألتها :

ـ الا يمكن الدخول ؟

قالت :

ـ كلا ، ان أوامر الطبيب شديدة

قلت :

ـ الست انت التي كلمتني بالهاتف ؟

فسألت :

ـ أأنت فلان ؟

قلت :

ـ بلى

قالت :

ـ منذ يومين ، والمريض يلحّ عليّ باستدعائك ، تفضل ، ادخل ، ولا تطل المكوث أرجوك ان حالته لا تستدعي القلق ، ولكن له حق في الاستراحة

فدخلت ، وما رآني حتى همّ بالجلوس على سريره ، فأسرعت اليه ومنعته ، فتناول يدي مسلّما ، وطلب مني ان ادني كرسيا من سريره ، فأجلس قربه ، وفعلت ويدي بين اصابعه لم يتركها

واظهرت له مدى المفاجأة التي احدثها فيّ كلام الممرضة ، ولمتهُ على دخول المصح دون ان يطلع اصدقاءه على نيته ، فاعتذر قائلا :

ـ لم اشأ ازعاج احد

قلت :

ـ وما كان مرضك ؟

قال :

– شعرت بألم في امعائي مساء السبت ، فأسرعت صباح الاحد الى طبيبي الخاص الدكتور ••• فنصحني بعد الفحص بان ادخل المستشفى واجريت لي العملية الجراحية الاثنين ، ولا ازال ، ويقول الطبيب ان حالتي تتحسن ، بيد اني لا أرى نفسي كذلك

فقلت تطمينا له :

– ان الطبيب – وان كنت انت المريض – ادرى بصحتك منك ، ناهيك عن ان وجهك ليس فيه من دلائل المرض شيء ، فلونه الآن هو لونه منذ أيام ، ويدك تضغط على أصابعي بقوة مصارع

فابتسم ابتسامة حزينة

ولم يكن من الصدق في عباراتي الا شدّه على اصابعي • اما محياه فقد كان فيه اصفرار غريب ، اصفرار يميل الى الزرقة ، وكانت عيناه غائرتين قليلا ، كأن مرضه ذو شهور عديدة لا ابن ثلاثة أيام

وسألني :

– متى عدت من السفر ؟

قلت :

– اليوم

قال :

– هيء نفســـك ، فسأقوم واياك بسفرة طويلة جدا ، سنعود الى الوطن ، سنعود اليه ، هل انت مستعد لذلك ؟

اجبت :

– انت أعلم الناس بالشوق الذي يغمر فؤادي الى تلك الارض ، وبالموانع التي تحول دون رغبتي في العودة ، على اني باذل جهدي لتذليلها

شيئا فشيئا ، ولي ملء الثقة بان استطيع بلوغ امنيتي قريبا •

قال :

ـ تعال نتفق الآن على ميعاد السفر ، اتقدر على ذلك بعد ستة أشهر ؟

فسألته :

ـ وانت ؟

أجاب :

ـ متى خرجت من هنا ـ وقد وعدني الطبيب بان يكون ذلك في الاسبوع القادم ـ فسيكون اول ما افعل البدء بتصفية أعمالي • ان الحانوت الذي اشتريته منذ مدة سأحوله الى راغب يريده ، وسأعرض أملاكي للبيع ، فأن لم أجد من يشتريها فورا ، انزلتها الى المزاد العلني • ولن اعدم من يغتنم الحصول عليها ، واذا تعسر بيعها تركتها ووكلت عليها من اثق به • المهم المهم ان نعود الى الوطن • اني غادرته منذ عشرين سنة ، هو عمر يا صديقي ، ان الطفل الذي كان ابن سنة ، أصبح اليوم شابا • وما نفعل هنا ؟ جمع المال ؟ وما نربح من جمعه ؟ اقسم بالله العظيم على اني لم اشهد نهارا واحدا من السعادة ، وما فائدة الثروة ؟ الا تراني الآن مطروحا في مكان بعيد عن الناس كأني منقطع الصلة بالدنيا ؟ وهب ان العملية التي اجراها الطبيب لي لم تكن ناجحة فما تكون النتيجة ؟ يحملونني على الآلة الحدباء وقد لا يدري بي أحد ، والكدح الذي كدحته في حياتي يذهب جزافا

فقاطعته محاولا التخفيف عنه :

ـ ان الصورة التي ترسمها تجري هنا كما قد تجري في أي بلاد

فقال :

ـ لا انكر ذلك ، انما الفرق بعيد بين ان تشاهد نفسك وحيدا وبين ان تشاهدها محاطا بالاهل والاصدقاء • ان لهذا السرير الذي تراني مستلقيا عليه ممرضتين : واحدة منهما تعتني بي عناية فائقة ، والثانية لا تلبي ما اطلبه منها الا بشق النفس • أفتدري السبب ؟ اني اردت ان اعرف تأثير المال حتى في حاله المرض فوعدت الاولى بهدية ، ولم اعد الثانية بشيء • وهكذا فالعناية بك وانت مريض يجب ان تشتريها بالاصفر الرنان • لقد كفانا ما انعم الله به علينا • اني عائد الى الوطن بعد شفائي ، اني عائد اليه واياك ، وسأستغل ثروتي فيه لا لأزيدها ، بل لأخفف وطأة البطالة عن عدد من الشبان فيه • اني استطيع ان افتح فيه معملا كبيرا ، او متجـرا ضخما ، واضع للعمل من يكون اهلا من انسبائي ، واجعل لهم أسهما من أرباحه • اما أنت فاني اعرف انك ستخوض ميدان الصحافة اذا عدت الى الوطن ، وسأشاركك في خسارتها اذا خسرت ، تهيأ ، وابدأ بتصفية ما عندك • عاهدني على ذلك

ـ هذه يدي في يدك

وانفتح الباب ، ودخلت الممرضة ، فالتفتت اليّ قائلة :

ـ عذرا ايها السيد ، لقد اطلت الزيارة ، ولصديقك ان يرتاح

فوقفت

فتأمل فيّ ، وقال :

ـ أرأيت ؟

فابتسمتُ ، وابتسم

وقال :

ـ تعال غدا

قلت :

ـ ان شاء الله

★ ★ ★

دخلت عليه في اليوم الثاني ، فبادرني بقوله :

ـ جئت في وقتك ، ارجوك ان تأتيني بكأس من الماء

فتأملت وجهه مليا ، فلم ابصر فيه ما يدل على الاتجاه الى الصحة وتركت الغرفة ، وسألت الممرضة التي كانت في المشى عما اذا كان مسموحا له ان يشرب الماء ، فقالت :

ـ اياك وما طلب ، فقد اوصاني الطبيب بأن أمسح شفتيه مرة كل ساعة بخرقه مبللة بالماء فحسب

فعدت الى الغرفة ، فلما شاهد يديّ فارغتين ، قال :

ـ ارجوك ، جرعة من الماء

فقلت :

ـ صبرا ايها الصديق ، ان الطبيب لا يسمح بذلك

قال :

ـ لقد كدت احترق ، اعطني جرعة من الماء ، ولا بأس ان متُّ بعدها

قلت :

ـ ما انت أول من اجريت له عملية ، فما بالك ضيق الصدر الى هذا الحد ؟

وجاءت الممرضة ، فقاست حرارته بميزانها ، ثم خرجت دون ان تبس ببنت شفة

وكان المريض يلحّ عليها بطلب الماء وهي تشير بيديها ان ينتظر

وتبعتُها الى خارج الغرفة

وسألتها عن حالته فقالت :

ـ لقد ارتفعت حمّاه درجة أخرى

فسألتها :

ـ وما معنى ذلك ؟

فأجابت بعد صمت قصير :

ـ لا أدري ، ولكن اشتداد الحمى لا يدل على خير

والتفتت الي بعد ان قطعت خطوتين ، وقالت :

ـ اياك أن تعطيه ماء

وعدت اليه ، وانا اتظاهر بالابتسام ، فقال :

ـ جرعة ، جرعة

قلت :

ـ صبرا

قال :

ـ اتركني في جحيمي اذن ، ان وجودك هنا يحملني على ان اواصلك بطلبي

فانسللت من الغرفة

ولبثت احرس الباب من الخارج ، وانا اسمع صراخه يطلب الماء ، وقلبي يتفتت حزنا ، الى ان جاء احد انسبائه ، فبلغته وصية الطبيب والممرضة ، ومضيت

* * *

وابكرت النهار الثاني ، وسألت الطبيب عن حالة المريض ، فقال :

ـ لا يزال كما كان البارح الحمى عليه شديدة ، وهو يهذي ، وانا انصحك بعدم الدخول عليه ، لان وجودك أو وجود غيرك في غرفته يؤثر على أعصابه ، وهو يحتاج الى الهدوء ، الى الهدوء المطلق

قلت :

ـ واجمالا ما حالته ؟

فانتشل من جيبه منديلا مسح به نظارتيه ، واجاب :

ـ ليس في مكنتي الجواب ، ان بنيته قوية وانا آمل ان تتغلب قوتها على ما يهدده من الخطر

فسألته :

ـ امن خطر على حياته ؟

فأجاب :

ـ ان الخطر يهدد كل انسان ، سليما كان أو غير سليم .

قلت :

ـ لا تحفل يا دكتور بالمصارفات ، فان كان ثمة من دواء تتوسم فيه الفائده ، فأنا اتكفل به مهما فدح ثمنه

قال :

ـ اني انوي ان انقل الى عروقه مصلا جديدا ان لم تتحسن حالته بعد ساعات معدودة ، فكن هنا حتى اذا اضطررنا الى مشتراه كنت حاضرا

قلت :

ـ سابقى

قال :

ـ ولكن لا تدخل الى غرفته

* * *

وناداني الطبيب ، واشار اليَّ قائلا :

ـ اذهب الى المعهد « الفلاني » واسأل عن مدير فرع الكيمياء فيه ، واطلب منه مائة غرام من هذا المصل ، وعد حالما يسلمك اياه

وبسط أمامي ورقة عليها اسمه ووصفة المصل

واسرعت الى المعهد

ودخلت ، وسألت ، وطلبت

فقابلني المدير ، واستمهلني نصف ساعة ريثما يعد العقار

ودعاني الى الجلوس ، فقلت :

ـ ارجوك ان تعذرني ، فاني لااستطيع المكـوث انتظـارا ، وحالتي العصبية كما تقدر ، فان سمحت لي بمرافقتك وانت تجهز الدواء شكرت لك صنيعك

قال :

ـ الحق بي اذن

ورافقته الى المختبر ، وفيه من كل آنية زوجان ومن كل سائل ألوان

وفتح الثلاجة وانتشل منها انية صغيرة ، فيها سائل اصفر ، وقال لي:

ـ هذا هو الدواء الذى جئت تأخذه ، انما عليك ان تنتظـر الى ان اصفيه ، وانقله الى جهاز آخر معد للنقل الى جسم المريض .

واشعل موقدا صغيرا من الكهرباء ، ووضع عليه الانية

فقلت :

ـ اتعتقد ان هذا الدواء يفيد المريض ؟

فاجاب :

ـ ليس من يستطيع التأكيد ، فقد يشفيه هذا الدواء كما قد يعجل

بموته • ان كل انسان دنياه وحده في عقله وفي نفسه وفي جسمه .كذلك ونحن الاطباء نتمنى من صميم قلوبنا ان يشفى عليلنا ، انما قد تفوتنا هذه الامنية في كثير من الاحايين •

ثم واصل بعد صمت قصير :

ـ انظر الى تلك الانية التي فيها السائل الاحمر هذا دواء جديد لنوع من انواع مرض الكبد • وقد قضى الطبيب الذى اخترعه عشرة اعوام وهو يدرسه ويجربه ويحسنه • ومع ذلك فليس المعنى ان هذا الدواء يشفي كل مصاب بداء الكبد • ان بعض اشكال هذا الداء يستعصي على جميع الادوية فنقف نحن حيارى ، مهمتنا ان نخفف عن المصاب الالم ، وقد قال لـي الزميل الذي اخترع هذا العلاج انه اذا شفى رجلا واحدا فقط اعتبر ان أتعابه لم تذهب سدى •

ووضع الطبيب في فمه انبوبا من الزجاج وراح ينفخ فيـه ويمزج مصلا بمصل

وظلت اصداء عباراته الاخيرة في ذهني

«عشرة اعوام لاختراع دواء قد يشفي مريضا واحدا لاغير»

ما اشد غيرة الطبيب المذكور على الانسانية

عشرة اعوام كان في وسعه ان يغتنمها لاقتناص ثروة طويلة ، اعرض عنها ليقدم دواء يشفيه وينجيه من الالم

ماهذا بفؤاد ، انما هو ينبوع من الخير

وما هذا الطبيب المخترع ، اول عالم يقدم على هذه التضحية ، ولن يكون اخر طبيب ينحر على عرفات الصلاح العدد الكبير من اعوامه •

ان هذا المختبر مليء بهذه الاثار ـ اثار التضحية التي قام بها الناس لمنفعة الناس

وكم من اطباء فارقوا الحياة قبل ان يتمكنوا من اكتشاف ما ارادوا ان يكتشفوه • ولو امد الله في اعمارهم لافادوا كما افاد الذين تحفظ اسماؤهم بالتقدير والاحترام

وكم من أطباء حالت صعوباتهم المالية دون ان يؤدوا ما احبوا ان يؤدوه من الخير ، ولو تيسرت لهم المادة لخطت الدنيا الى الامام خطوات واسعة بواسطتهم

ما اعظمك ايها الانسان !

انت الذى تقضي السنوات العديدة •••

وتغيرت الصورة فجأة

فرأيت مشهدا من الحرب الاخيرة

رأيت هذا الانسان نفسه عاكفا على اختباراته في معهده يصل الليل بالنهار ، فيخترع المسدس الرشاش الذى لايتوقف حتى يفرغ ما فيه ، والمدفع الذي يكفي ان تضغط في آلته زرا ليزرع الخراب فيما حوله •

رأيت هذا الانسان نفسه يحرق ما في دماغه من ذكاء ليبتكر قنبلة تحمل الموت الى مئات الالوف من الخلق

رأيت هذا الانسان يفعل ذلك ، وسمعته يبرر فعلته متذرعا بادعاءات غريبة

ثم رأيته ـ في ايام السلم ـ يغمد خنجره في صدر رفيقه ليسرق منه دريهمات تعجز عن مشترى قوت يوم واحد

رأيته يحرق بناية برمتها ويعرض ساكنيها للخطر ، لاحراز بدرة من المال يبذلها في ساعة فجور

رأيته يفعل ذلك ، وتمثلت وجه الطبيب الذى اكتشف دواء الكبد وتخيلت وجه المهندس الذى اخترع القنبلة الذرية ، واختلط الوجهان

وانتشلني من امواج هذه الحيرة صوت الـرجل الذى يعـد الدواء امامي ، وقال :

- ها هو المصل ، قد انتهيت من تجهيزه ، فانقله الى حيث تريد بعناية وليكن فيه شفاء مريضك فتناولت الانية كما يتناول المرء ذخيرة مقدسة ، وتأملت السائل جيدا كأني اعاين فيه شفاء المريض الذى تركته يعاني الالم

ووصلت الى المصح ، فتناوله الطبيب مني ، وقال :

- سنجربه ، فعسى ان يكون فيه البرء

* * *

ولم ينجح الدواء الذى القينا عليه رجاءنا فاشتدت وطأة الحمى على المريض ، وأصبحت شكواه متواصلة ، وبات انينه مسموعا من خارج الغرفة

ودخلت عليه ، فابصرت اثار القنوط بادية على وجهه ، فسالته عن مكان الوجع

فاجاب بصوت متقطع :

- اني اشعر بالالم في كل موضع من جسمي ، حتى التنفس يؤلمني اعطني جرعة من الماء ، واجرك عند الله اعطني جرعة من الماء

فاسرعت في الخروج لاستشير المرضة ، فعادت الى توصيتي بـان امتنع بتاتا عن تلبية رغبته

ودخل الطبيب الى الغرفة ، فقال له صديقي :

- ارجوك جرعة من الماء ، ان قلبي يحترق

فوعده الطبيب بشفاء قريب

ولكن المريض لم يقتنع

ودخل المريض في طور الهذيان ، وكانت النوبات تتوالى ، فيبدو حديثه من كل واد عصا ، ثم يعود الى صمائه هنيهة فيجرى كلامه على سنة المنطق

وكان الخبر قد انتشر بين اصدقائه ومعارفه وانسبائه ، فجاؤوا يسألون عنه

ولما كان الدخــول عليــه محظورا ، فقــد كان يريدون ان يروه يلتصقون بالباب وينظرون من خصاصه ، ثم يعودون والدموع ترقرق من مآقيهم

واباح لي الطبيب الدخول على المريض بين الحين والاخر

فقلت له :

ـ ولكن يادكتور ايبقى على حالته هكذا ؟ اليس من دواء يخفف عنه الامــه ؟

فقــال :

ـ لقد اوصيت الممرضة بتجريعه دواء جديدا ، لا ادري تأثيره

فقلت له :

ـ اكشف لي الحقيقة ، اليس من رجاء في شفائه

فاجاب :

ـ على الطبيب ان لايقطع الامل مهما ساءت صحة المريض ، انما في هذه الحالة اكاد اقطع الامل . علينا ان ننتظر بصيصا من الرجاء في هذا الدواء الجديد ، فان لم يكن ، اعلن الطب ، عجزه وما هذه اول مــرة يصرح العلم بعيائه وتقصيره وتعالى من جديد انين المريض

واعتبرت من واجبي ان اصارح الذين يسألون عنه بما وصل اليه

★ ★ ★

قالت :

ـ اريد ان اراه

فاجبتها :

ـ عذرا ، ايتها الانسة • ان الطبيب قد حظر زيارته ، وليس في مكنتنا مخالفة اوامره

قالت :

ـ اني واثقة ان زيارتي ستسره

فقلت

ـ وهذا يحملني بمنعك من الدخول فقد اوصانا الطبيب بان نحيطه ما امكن بالهدوء فان اقل تأثير على عواطفه يجهد قلبه

فتململت ضجرا ، وتحولت الى مقعد فجلست عليه

وتدبرتها من البعيد ، فلمحت دموعا خفية تسترسل على خديها

فمن تكون هذه المرأة ؟

هي في العشرين من عمرها او تزيد قليلا ، رشيقة القوام ، معتدلـة القسمات تلبس فستانا حريرى الجنس ، بسيط الشكل اني اعرف جميع انسباء المريض واصدقائه ، وليست هذه المرأة منهم

وهمني امرهـــا

فمن تكون ؟

ان صديقي الذى يئن في هذه الغرفة لم يكن يخفي عني شيئا مـن اسرار فؤاده ، فانا ادرى الناس بعلاقاته

فمن تكون هذه التي تبكي ؟
وتقدمت منها وقلت :
ـ الك ان ترافقيني الى مقهى قريب ؟ لقد انقضت علي ساعات طويلة وانا واقف كالحارس هنا ، وما دام احد اقارب المريض ينوب عني فلا باس من ان استريح قليلا
ورضيت
وجلست قبالتي في المقهى
فقلت لها :
ـ من انت من المريض ؟
قالت :
ـ ليست صلتي به قريبة العهد ، اني عرفته منذ عامين في احد مسارح العاصمة واذكر انه حدثني عنك مرارا ، ولابد ان يكون حدثك عني • لقدكان يزورني مرات في الاسبوع ، ووعدني اخيرا بان يتزوجني بعد ان ينهي مشاكل تعترض حياته ، واعتقد انه صادق في وعده • فهل لك ان تخبره باني جئت لعيادته ولك الشكر ؟
فقلت لها :
ـ لن يفوتني اطلاعه على عاطفتك في اول سانحة ، ولاشك في ان سروره لاهتمامك به سيكون كبيرا
وارتشفت ما تبقى من فنجان القهوة في فنجانها ، ثم وقفت وقالت :
ـ اني منصرفة الان الى عملي ، فقد حان وقته ، ولا ادرى كيف اتمكن من تهدئة اضطرابي وقلبي ينعصر لهذا المرض الذى اصابه • بل لا ادرى كيف انام هذه الليلة وهو يتقلب على فراش الالم ، ثق انــي

لمتحرة ، لا محالة اذا فجعتني الايام به
وهطلت دموعها
فقلت لها وقد شعرت بان فؤادي يتفتت لحزنها :
ـ لاتقطعي حبل الرجاء
قالت :
ـ لو تعلم مقدار الحب الذي اضمره له ، لو تدري ان الحياة لا شأن لها عندي الا معه ..
ورفعت ناظريها ، وتابعت كأنها تخاطب العزة الالهية :
ـ ماذا فعل ؟ ماذا فعل ؟ حتى تجازيه هذا الجزاء ، ؟اين العدالة ؟
ولم استطع ان احبس دموعي ، فربت كتفها صامتا
واستلمت الباب وخرجت
وعدت الى جانب المريض ، وانا اعجب لهذا الوفاء تبديه هذه المرأة التي لايعلم احد علاقتها به

* * *

وغدا المصح ، بعد ان ذاع الخبر بان المريض في حالة غير حسنة يعج بالزائرين
وكان الجميع يسردون ما يعرفون عنه من الحوادث الطيبة ، ويبرهنون على تقديرهم اخلاقه العالية
ورأيت بين هؤلاء المتأسفين رجلا تجمعه بالمريض رابطة بعيدة من القرابة لايفارق المصح الا بريهات قصيرة ويهتم كل الاهتمام بكل كلمة تقال عن حالة المريض
وكان بين الحين والاخر يسألني عنه ، فاطلعه على رأي الطبيب ،

فيطلب مني مشاهدته فأقول له لا فائدة لان الحمى التي تنتابه تلح في هديانه فيضرب المسكين كفا على كف ، وتقطر من عينيه دموع وينتشل منديله ويمسح وجهه ، ويقف في زاوية من الردهة حزينا ، ويعود هنيهة ليسأل من جديد

واكبرت شعور الرجل واهتمامه ، وقلت لنفسي :

ـ صحيح ان العدالة لاتظهر الا في اوقات العسر والشدة فقد كان المريض لايقدر عاطفة نسيبه البعيد وهو في صحته فيعامله معاملة عادية وها هو الان يظهر غيرة تسجل له على صفحات القلب • ان هذه الخوالج تشرف الانسانية ، وهذه الدموع التي تتساقط على خديه هي براهين على ان الوداد الانساني لا حد له • سأقول لصديقي ان من الله عليه بالشفاء ما ظهر من هذا الرجل النبيل

ومرت ساعات

وجاء الطبيب لعيادة المريض

ثم خرج من غرفته وقد بدت على وجهه أثار اليأس

فسألته ، وسأله الذين كانوا قربي ، فقلب شفته تملصا من الجواب ونادى الممرضة ، والقى في سمعها عبارات لم نستطع ان نتبينها

فعرفنا ان حالة المريض قد ساءت

ووجمنا جميعا وجوم الحزن والحسرة

ودنا مني نسيب المريض الذى ذكرته سابقا ، وقال لي :

ـ اسمح لي بهنيهة من وقتك فانى اريد ان اطلعك على قضية مهمة

فخرجت وهو يرافقني باكيا ، وانا اخفف عنه البلوى بكلمات الصبر وابتعدنا قليلا ، فوقفني في ناحية من الطريق ، وسأل :

ـ كيف ترى حالة المريض ؟

قلت :

ـ ان الدلائل تؤكد انها غير حسنة ، فما العمل ؟

ثم اردفت بعد صمت قصير :

ـ واذا كنت انت نسيبه : فلا تنسى اني صديقه الامين ، وان الحزن الذي يغمر فؤادي لا يقل عن الاسى الذي انت غارق في لجه

قال :

ـ الم يوصك المريض بشيء قبل ان تشتد عليه الحمى ؟

قلت :

ـ كلا

قال :

ـ اسمع ، لقد استدان مني قبل العملية بيوم واحد مبلغا من المال لقاء فائدة سابقة دفعها لي ، ووعدني بان يقدم لي صكا بالقيمة ، ثم اعتراه المرض ، فلم يقدم لي الصك ، واذا كانت حالته خطرة ـ كما يؤكد الطبيب ، فما افعل انا ، وليس لدى اى برهان على انه اخذ القيمة مني ؟

قال هذا وعادت دموعه ، فبللت خديه ، وشبك يديه على صدره مسترحما ، وتابع :

ـ ان مالي سيذهب هدرا ، اذا امتدت اليه يد الموت ، افليس من وسيلة لتخليصه من براثن الردى ؟ واذا كان حكم القدر سينفذ ، افليس لديك من وسيلة لانقاذ مالي من الضياع ؟

كانت كلمات الرجل تنزل على قلبي كالسهام المسنونة ، وانهارت منها بناية الشرف الانساني التي بناها وهمي كأنها قصور من الكرتون

حيال اعاصير غاضبة • كنت اظن اسفه صادرا عن تقديره اخلاق المريض ، فاذا هو خوفه على مال اقرضه وسيطرت علي نوبة من السكوت

وقال :

ـ الا تستطيع ان تسأله ـ انت ـ الوحيد الذى يسمح لك الطبيب بالدخول عليه ـ عن الكيفية التي يمكن ان يرتد مالي لي ؟ اوليس في وسعك ان تقدم له هذا الصك ليضع امضائه عليه ؟

وانتشل من جيبه ورقة مخطوطة

وحدثتني نفسي بان ابين له اشمئزازي منه ، انما عدلت احتراما لقرابة المريض به

وقلت :

ـ ان نسيبك دخل في طور الاحتضار ، وهو لايعي على شيء وهيهات ان نستطيع حمله على توقيع هذا الصك ، واذا انتظرنا الدقائق التي يستعد بها وعيه وقدمنا له ورقتك ، فسيكون منها صدمة معنوية له لانه يدرك ان حالته في منتهى الخطر ، ومن وصية الطبيب ان نمتنع عن ابداء اية اشارة يشتم منها انه مشرف على الموت فامسك الرجل يدي ، وقال :

ـ اكاد اجن ، فدبرني ، كيف يذهب مالي هكذا ؟

قلت :

ـ كن واثقا بشفائه ، فسيعود اليك فلسك

قال :

ـ هيهات ان يشفى

قلت :

ـ اذا انتقل الى رحمته تعالى ، فلابد ان يقدم اليك ورثته مالك

في ذمته

قال :

ـ تلك قضية تطول ، وهي غير مضمونة

فقلت :

ـ واذا لم يؤد مالك احد ، فانا أؤديه

قال :

ـ اني احتاج اليه الان

قلت :

ـ هات الورقة

وتناولتها منه وسحبت القلم من جيبي ، ووضعت على الصك امضائي

فاخذه مني ، وهو يبتسم ابتسامة السرور ، وقال :

ـ شكرا لك ، الان امنت على مالي ، واستطيع ان انام مطمئنا

ومد يده يريد ان يودعني

فرفضت ان ابسط له كفي

★ ★ ★

ودخل الطبيب ففحص المريض من جديد وخرج

ودعاني الى ناحية بعيدة عن الناس وقال لي :

ـ لقد قطعت الامل مـن شفائه ، فان شئت فتأخـذ ما تشاء مـن الاحتياطات

قلت له وانا لا اعى ما اقول

ـ كلا كلا يادكتور ، لايمكن ان يكون ذلك

فأجاب :

– في نبضاته خلل ، ومتى ترك القلب الاتزان فقد اضمحل كل رجاء

والمريض في هذا الطور ، فاعطه ما يطلب ، وابح زيارته لمن يرغب

وتركني ومضى

ورجعت الى حيث المريض ووقفت قبالته ، فرأيت وجهه شديد الاصفرار ، عينيه غائرتين وجفنيه مغمضين لا يفتحهما الا لماما فان فتحهما عاد في الحال الى اغماضهما

وشعرت بخفقان قلبه السريعة

واخذ يشهق كل دقيقة تقريبا شهقة طويلة

وجاءت الممرضة فاقتلعت الورقة التي كانت على الباب تحظر الدخول وتقدمت من المريض وسألته :

– اتريد شيئا ؟

فلم يرد وفتح عينيه بصعوبة وتأملني ، واغلب الظن انه لم يعرفني ، عاد الى ما كان عليه

وشرع الزائرون يدخلون ، وقد ابيحت لهم رؤيته ، ثم يخرجون متأسفين

واستفاق المريض هنيهة ، فعدل جلسته قليلا على الفراش بمساعدتي ، فسأل عما يبغيه هؤلاء الزوار منه ، ثم تلفظ بكلمات غير مفهومة وعبارات لا ارتباط ببعضها ، ورجع الى اغماض عينيه ، والى الشهيق بين الحين والاخر ولبث على هذه الحالة وانا واقف امامه ساعة او اكثر ثم شهق شهقة اطول من اخواتها ، وسكنت حركته وكان احد انسبائه واقفاً بالقرب مني فمد اصبعه واطبق جفنيه وفمه

وادنيت اذني من قلبه ، فاذا هو لايزال ينبض ، وبسطت يدي الى

معصمه ، فاذا هو بارد كالجليد

وشهق بعد ثوان شهقة سريعة ولوى رأسه

وتوقف نبض ذلك القلب

ووضع القدر النقطة الاخيرة في هذا السطر الذى مثلته حياته

ووجمت ازاء هذا المشهد : مصرع الصديق الذي عاشرته مدة طويلة ورأيته يقارع الايام ، فيغلبها احيانا وتغلبه احيانا ومرت امام خاطري اسئلة عديدة مبهم بعضها ، وبعضها واضح

اتكون هذه الجثة جثة الرجل الذى كنت اسمعه يعد العدة للمستقبل ويكدح ممهدا العقبات التي تعترضه ؟

وما بعد هذا السكون الرهيب ؟

اصحيح ان وارءه حياة اخرى اجدر من هذه ، ام ان وراءه عدما في عدم ؟

والى اين طارت هذه الروح التي كانت تختلج في هذا الجسم ؟

وما هي القوة الهائلة السرية التي كانت تربط هذه الروح التي لا نراها بالجسم الذى اشهد بقاياه على هذا السرير ؟

ان للموت رهبة في النفوس

وموت الصديق وقفة في طريق الحياة ، تحملك على ان تلتفت لماضيك وحاضرك ومستقبلك

انها عصرة لقلبك

الآن ادركت ما كنت عنه غافلا

الآن جلوت طلسما من طلاسم الحياة ، وانا اشهد الموت يتسلل الى هذا الفؤاد الذى طالما كشف لي اسراره

لقد سمعت في حياتي عن كثيرين ماتوا ، فلم احفل بهم لانهم كانوا غرباء عني ، وكنت استغرب الدموع يذرفها الناس واعتبر حزنهم سخافة، ولكني الان اشعر بالندم

اني احس ان في حلقي عقدة

وتنتابني رغبة حارة في البكاء

ويبدو لي أن الدنيا تضيق شيئا فشيئا ، فلا تضم دائرتها الا هـــذا السرير المسجى عليه صديق

واقابل الحركة التي كانت قرينة هذا الصديق بهموده الان ، فـــلا اكاد اصدق ان هذا ذاك

لا ، لا يمكن ان يكون قد مات

منذ ايام كنت في داره ، وكان حديثه متواصلا

انما اي حد بين الموت والحياة ؟ انهما متشابكان تشابك الخمر بالماء

انهما في كأس واحدة

اهذه نهاية المرء ؟

اهذه نهاية الجد والعراك ؟

ما اقل قيمة الحياة

ما اتفه ثمن العمر

واستصغرت ما قمت به وما ساقوم به

واستولى علي ضباب من اليأس

فخرجت من الغرفة مسرعا

ووقفت على شباك يطل على الشارع ، فشاهدت السيارات والناس والدور والمتاجر

باطل ، باطل ، باطل

ولكن لا

ما دام العمر قصيرا الى هذا الحد ، وما دامت نهايته هكذا ، فمن الواجب اغتنامه

ماذا تهمني الغاية التي وجدت لاجلها على الارض

اني لا اعرفها

ولا يناسب ان اعرفها

علي ان اغتنم العمر .

علي ان افعم ايامي بشيء مهما كان

علي ان اقدر حياتي منتهية غدا ، وان لم يبق لي الا هذا النهار لانهاء سائر مهامي

ان الحياة حركة

والموت جمود

وان كنت من الاموات فليكن موتي مرة واحدة

فكل لمحة من الجمود هي موت مرة

واذا كان الردى صعبا فلماذا اقترب منه كل لمحة ؟

لقد وقفت امام صديقي هذه الوقفة ، وعلي ان اتابع الطريق الى مصيري

اننا ولجنا الحياة ولا ندري كيف ولجناها ، ومن اللياقة تركها دون ان نبحث عن السبب الذى يدعونا الى تركها

يقول الناس ان الموت رهيب

كذبوا

ان الموت سهل

ان الموت شهقة طويلة ، وينتهي الامر
ها هو صديقي قد شهقها
وها هو قد فك القيود التي كانت تربطه الى الناس
انه الان طليق
انه فوق الزمان والمكان
ومن يستطيع ان يكون فوقهما مهما طالت وجاهته ؟
كان الناس يقيدونه بالشرائع والتقاليد ، وها هو الان يهزأ بالتقاليد والشرائع

كان صديقي ـ وهو حي ـ يكب على الجرائد يطالعها ويدرس مايمكن ان يصدر من قوانين جديدة فلا يعيش على هامشها

فلتصدر الآن جميع القوانين دفعة واحدة ، انه لا يحفل بها اقل حفـول ٠

هذه هي العظمة : ان لاتعبأ بأي شيء

كان صديقي في حياته يهتم كل الاهتمام بما يذيعه الناس عنه ، فهو يعيش كما يريدون هم ، لا كما يريد هو ٠

ولم يكن مأكله ومشربه على ذوقه ، بل على اذواقهم
وهاهو اليوم لايبالي بهولاء

هاهو وجهه ، وعليه علامة الهزء بالناس ، وربما يراه الناس من صالح وطالح

والجبروت ان لاتبالي باقوال الناس وبأرائهم
والموت يتكفل لك ، بكل ذلك

* * *

فرفع نظرة عن السطور قليلا ، وقال :

ـ طيب

وعاد الى المطالعة

وتركته الممرضة الى عملها

ووقفت واجما

ايعتاد الطبيب الى هذا الحد على رؤية الموت ، فيصبح عنده النبأ من البساطة بحيث لا يأكل من وقته الا رفع نظره عن الجريدة ؟

والممرضة ـ وهي من الجنس اللطيف ـ تلقي عليه الخبر ثم ترجع كأنه خبر عن سقوط ورقة الى الارض لاشأن لها ؟

وطال وجومي

الطبيب لم يحفل بما جرى

والممرضة لم تعبأ بما حدث

وانا ـ انا كنت اظن ان الوجود بأسره سيهتم لموت صديقي

ومن هذا الذى مات

وما محله من الاعراب في هذا البحر الذي قطراته جميعنا ؟

واذا كانت حركة الحياة ستقف لموت فرد ، فقل على الدنيا السلام

منذ تحولت الى مكتب الطبيب لاطلعه على موت المريض الى الدقيقة التي وقفت فيها واجما ، مات على وجه الارض مئات من الناس ، ومنهم من قد تكون حياته اعظم من «ذي الغرفة الرابعة» والوجود لايزال كما كان

فعلام اريد انا ، انا ، ان يتغير مجرى الكون لان رجلا تجمعني بـه جامعة وداد ، وقد انتقل الى الاخرة ؟

★ ★ ★

* * *

وجمعت انسباء الفقيد واصدقائه المقربين في الردهة ، وتبادلنا التعازي ووزعنا المهام على بعضنا كأننا قائمون بتجارة فيها الارباح الوفيرة :

فهذا يهيء غرفة في داره لعرض الميت فيها

وذاك يتولى نقله

وذاك يتلقى المعزين

والقيت علي اصعب مهمة : الاتفاق مع شركة الدفن على سائر التفاصيل الواجبة في مثل هذه الحالة

وقال لي اقرب انسباء الفقيد :

ـ اننا نريد ان تكون حفلة الدفن من اروع الحفلات ، وان تكون العربة التي ستنقله الى مقره الاخير من افخم العربات

وصادق الذين حوله على اقتراحه

وركبت الحافلة الكهربائية الى مقر اكبر شركة للدفن

وكانت كلمات المرض والموت والدفن والطبيب والممرضة تتراقص امامي

كانت صورة الفقيد تلاحقني كما رأيته في لحظته الاخيرة

وجلست على مقعد في الحافلة

وكان امامي شاب وفتاة ، لاارى الا ظهرهما يتهامسان ، وقد ظهر من التصاقهما ببعضهما انهما عاشقان ووصل آلي همسهما بالرغم مني

قال :

ـ اني اعد هذا اليوم اسعد ايام حياتي ، فقد طالما تقت اليه ووضعت له الخطط

قالت هي :

وتوجهت الى مكتب الطبيب في المصح لاطلعه على النبأ ، فوجدت المرضة قد سبقتني

وانتهى من مطالعة جريدة كانت أمامه فقالت :

ـ ان ذا الغرفة الرابعة قد مات

ـ وانا كذلك ، وانت ادرى بشعوري فقد كنت مقيدة بـه لا اطيق رؤيته ، ولولا المال الذي كان يقدمه لي حين ازوره لكنت تركته من زمن طويل

فقاطعها هو :

ـ كدت قديما اوصيك بهجره فقد كنت اقضي النهار الذى تخبرينني فيه انك ستزورينه والتعاسة تلاحقني

فقالت :

ـ دعنا الان من الماضي ، ولننظر الى المستقبل

فقال :

ـ ولكن هل تاكدت انت من موته ؟

فاجابت :

ـ ذهبت لعيادته في المصح منذ يومين ، فكانت حالته سيئة وسألت عنه منذ ساعتين فاجابني رجل من الادارة انه توفي ، فعدت من جديد وسألت فكان الخبر صحيحا

ولم انتبه اول الامر كثير الانتباه لحديثهما ، غير اني لما سمعت كلمات المصح ،الطبيب ، المريض ، الموت ، ارهفت سمعي ،

وعرفت صوت المرأة :

هي التي ذهبت لتسأل عن المريض ومضيت بها الى المقهى ، ولطفت

من «احزانهــا»

وحدثتني نفسي بان الفت نظرها الي بيد اني تركتها ، فحالتي لاتسمح لي بأن تزيد المي .

اذن ـ لقد كانت تبتز ماله وتتظاهر بصداقته وتتقاسم ما تربحه منــه وعشيقها هذا ؟

وخفت ان اقوم بما لا تحمد عقباه ، فنزلت من الحافلة .

* * *

هو محل ليس في واجهته الا باقة كبيرة من الزهور الاصطناعية

من فرشه الثمين ثلاثة مقاعد وكنبة طويلة

وعلى جدرانه صور لعربات ضخمة

وجلس على المكتب رجل متوسط العمر هيئته تدعو الى السكون

هو المحل الذى يتولى الدفن

وما دخلت حتى وقف الرجل وحياني :

وقدم بيده كرسيا ادناه من المكتب ودعاني الى الجلوس ففعلت

قال :

ـ انا رهن اشارتك

قلت :

ـ لقد توفي صديق لي واريد ان ..

فقاطعني معزيا :

ـ البقية بعمرك

ثم تابع :

ـ كيف تريد ان يكون الدفن ؟

ـ تحت التراب

قال :

ـ ما هذا الذى قصدت اليه • كيف تريد ان تكون حفلة الـدفن

فاجبته :

فخمة ام بسيطة ؟

قلت :

ـ اخبرني عن الفرق ، واعذرني على جهلي ، فهذه اول مرة اتولى القيام بمثل هذه المهمة

قال :

ـ عندنا اربعة انواع من العربات ، فالعربة الاولى وهي بسيطة يجرها حصانان والثانية تجرها اربعة ـ وهي وسط ـ والثالثة تسحبها ستة جياد وهي فخمة اما الرابعة ونحتفظ بها لمن يريد ان تكون حفلة دفنه منتهى الفخامة ، فتسحبها ثمانية جياد

ومد يده الى احد الادراج ، وانتشل اربعة رسوم كبيرة : كل رسم لنوع وفي كل صورة ظهرت نفس العربة السوداء يميزها عدد جيادها

فتأملت الصور جيدا ، وكدت انفجـر بالضحك ، وهـل ألام على الضحك وقد أصبح تقدير عظمة الدفن بعدد الاحصنة التي تجر الميت الى مقره الاخير ؟

وقلت لابعد عني فكرة الضحك :

ـ اعتقد ان الجياد الستة افضل نوع لنا وللفقيد ، وهو لن يتطلب منا اكثر من ذلك

قال :

ـ طيب والصندوق كيف تريده ؟

فاجبت :

ـ ان يتسع للفقيد

قال :

ـ ما نوع الخشب ؟

قلت :

ـ لقد اخبرتك ان هذه هي المـرة الاولى التي اتولى هـذه التبعة ، وعليك ان ترشدني

فابتسم وقال :

ونزلت معه الى دهليز بابه في مؤخرة المكتب ، واشعل النور ، فاذا في المكان عدة انواع من الصناديق ، والفرق بينها لون الخشب وجنس المقابض وكلها متساوية في الحجم تقريبا وفي الشكل

فقلت :

ـ اجميع هذه الصناديق فيها اموات ؟

قال :

ـ كلا ، وانما هي «عينيات» الصناديق ، فاختر انت التي تروق لك

فتذكرت نادرة الاعرابي الذى سأل ابو نواس ايرافق الميت وهو امام النعش ام وراءه فاجابه «ابذل جهدك لكي لاتكون ضمن النعش ، ولا فرق بعد ذلك في مشيتك»

وادرت نظري ـ ثانية ـ في الصناديق ودللته باصبعي على صندوق

فقال :

ـ طيب ، تفضل

وعدنا الى حيث كنا

وظننت ان القضية قد انتهت ، ولم تكن قد انتهت ، اذ قال لي:
ـ هل تريد ان ترافق عربة الدفن عربة ثانية خاصة بأكاليل الزهور ؟
قلت :
ـ لاباس
فتناول ورقة بيضاء واخذ يدون فيها ما يعن على خاطره
ثم رفع عينيه من جديد الي وقال :
ـ الا ترى من المناسب ان يقف على باب الفقيد رجل من شركتنا بالثياب السوداء ؟
قلت :
ـ وما مهمته ؟
قال :
ـ لا مهة له ، انما جرت العادة بذلك زيادة في فخامة الدفن
قلت :
ـ ابعث به
قال :
ـ كم شمعة تريد ان نضع قرب الميت ؟
فاجبت :
ـ اربع شمعات
قلت ذلك لاتخلص من سؤاله ، فلم اكن ادري ما نفعها ، وما تأثير عددها
وكأنه اراد ان يمضي في اظهار جهلي الفاضح ، فقال :
ـ كم جريدة تريد ان تنشر الدعوة الى الدفن ؟

ولا انكر ، فلم اكن اعرف ان الـدفن يحتاج الى دعـوة للحضور ، فهززت رأسي وتاملته تأمل المتظاهر بالتفكير واجبته :

ـ اعتقد ان نشر الخبر في خمس جرائد كاف

فسجل سطرا اخر في اللائحة امامه

ثم توجه الي وعلى وجهه سؤال تليه اسئلة كثيرة ، فسبقته الى القول :

ـ اسمح لي ان القي مسؤولية الامر على عاتقك ، فافعل ماتشاء ، وانا اود ان تكون حفلة الدفن لائقة فلا نخجل امام الفقيد بنسياننا احد التفاصيل الصغيرة

فقال :

ـ سأكون عند الثقة التي تضعها في ، ولا اتي بجديد اذا اخبرتك ان حفلة الدفن هذه ليست الاولى التي اعدها ، ولايمر علي يوم دون ان انظم جنازة او اكثر ، واحمد الله على ان جميع الذين دفنتهم شركتنا كانواراضين واتنبه الى خطأه في التعبير ، فانهى عبارته قائلا :

ـ اردت القول ان جميع انسباء الاموات كانوا راضين عما قمنا به

واكب على اللائحة وكتب فيها سطوراً قليلة ، ووضع ارقاما عديدة ، واستخرج النتيجة ، والتفت الي قائلا

ـ من عادتنا ان نستلم نصف القيمة قبل الشروع في العمل ،والنصف الثاني بعد الانتهاء منه ، فتكرم واد المبلغ المرقوم ولم يكن يخطر لي ان تكاليف الدفن تبلغ الرقم الذى اشار اليه

فقلت :

ـ الا تعتقد ان القيمة باهظة ؟

فقال :

ـ ثق ان هذه القيمة قليلة نسبة الى البذخ الذى ستشهده في حفلة الدفن ، وسترى ان كثيرين من الحاضرين سيتمنون من صميم قلوبهم ان يجرى لهم احتفال كاحتفال نسيبك

ووقف عن الكرسي وقال :

ـ اتبعني لادلك على العربة التي ستحمل الصندوق

ودخلت واياه الى الشقة الثانية وفيها ثلاث عربات سوداء نقشت عليها زخارف بارزة وغير ذلك من السخافات التجارية الدينية

واشار الى اكبرها حجما ، وقال :

ـ وهؤلاء العمال سيقومون بالمهمة بالثياب السوداء

فأدرت نظري في العمال ، وكانوا يدهنون العربات ويمسحونها ، فاذا وجوههم كوجوه ممثلي السينما الذين يقومون بالادوار المرعبة ، فقلت في نفسي :

ـ اتكون اعمالهم قد بسطت على وجوههم هذه المسحة من الموت «المقدر» ، ام يكون ارباب الشركة قد اختاروهم على هذا الشكل لتجانس العربات والعمال ؟

واحببت ان اتخلص من موقفي دفعة واحدة فقلت للرجل :

ـ لقد رضيت ، الاتكال على الله

وصدق الرجل ، فابدت شركته عناية كبيرة بنقل الفقيد الى داره واعداد الغرفة التي سيعرض فيها اعدادا لائقا وباستقبال المعزين

وراح المشيعون من انسباء الراحل واصدقائه ومعارفه يفدون من كل ناحية ، فيلقون عليه ـ وهو مسجى في وسط الغرفة ـ النظرة الاخيرة، ويقفون خارجا منتظرين الموعد المضروب لتشييعه الى المقر الاخير

ووفدت باقات الزهور ، وعلى كل باقة اسم مرسلها ، وكان الناس يبدون - اعجابهم تارة بالنظر ، وتارة اخرى بالكلام كلما وفدت باقة كبيرة كأن العواطف تقاس بحجم الزهور ..

واتصل بي وانا جالس على كرسي لاستريح قليلا حديث الحارس على الباب يحول دون زائر فوقفت وتقدمت فاذا صبي لايتجاوز العاشرة من سنيه يريد الدخول

فسألت الولد عن مراده

قال :

- اود ان اضع هذه على صدر الميت

وكانت في يده زهرة واحدة

قلت :

- ومن انت ؟ هل تعرف الفقيد ؟

قال :

- انا جاره ، وقد شاهدني منذ ايام العب بكرة عتيقة ، فاعطاني ثمن جديدة دون ان اطلبها منه

فقلت :

- تعال رافقني

وتوجهت ومعي الصبي الى غرفة الميت ، فوضع الزهرة على صدره ، ولبث بضع دقائق يتأمل وجهه ، ثم تحول الى الباب

فقلت في نفسي :

- هذه عاطفة صادقة بين كومة من الكذب والرياء ..

وجاءني احد انسباء الفقيد وقال :

– في الدار بضع نسوة يرغبن في ان يندبنه على الطريقة القديمة

قلت : كيف ؟

قال :

– يجتمعن حوله وتشرع واحدة منهن في النواح معددة مآثره ، وترد بقية النساء عليها

فقلت :

– اتركوا للميت بعض جلاله ، ولا تجعلوه مسخرة منظمة ، تكفي عربات الدفن السوداء وباقات الزهور التي حوله فقلب شفتيه ومضى وعلى وجهه دلائل الحنق

كان للفقيد سيارة خصوصية ، وكان شديد العناية بها ، فدهانها دائما جديد وحديدها لماع ، وكان من عادته ان يبقيها على باب داره الى وقت الحاجـــة

ودخل الفقيد المصح فطلب من صاحب المرآب الذى كان يمونها بالنفط ان يظل على تموينها وهي على الباب الى ان يخرج معافى

وظلت السيارة مكانها

وجاء مدير شركة الدفن ، فقال لي :

– انالعربة التي ستنقل الفقيد الى المقبرة جاهزة فلمن هذه السيارة على الباب ؟

قلت :

– للفقيد

– يجب اخراجها من موضعها لتقف مكانها عربة الدفن ، فهل عندك مفتاحها ؟ اعطنيه وسلمته اياه

وعاد بعد ربع ساعة فقال :

ـ ان السيارة مخربة ، ولم استطيع زحزحتها

فتناولت منه المفتاح

وخرجت

وجربت تسييرها فعجزت

واستغربت ذلك كل الاستغراب ، فالسيارة كما اشرت جديدة ليس فيها خلل ونزلت منها

وطلبت من بعض الحاضرين ان يدفعها لنزحزحها عن موضعها

ووقفت اتأملها بعد ان ابعدناها قليلا ، وقلت لنفسي :

ـ ايكون في هذا الفولاذ المركبة منه السيارة شعور ، فتتخرب الاتها لتبقى في الموضع الذى اراد الفقيد ان تكون فيه ، في المقر الذى تعود الفقيد ان يضعها فيه ، ام تكون الصدفة قد فعلت فعلها فطرأ على الاتها تخريب مفاجىء ؟

وجمح بي الخيال ، فانقلبت السيارة في نظري الى كائن ذي احساس.

وسمعتني اهمس :

ـ ليت في بعض القلوب شيء من هذا الحديد ..

* * *

وحان معياد الدفن

وتقدم اربعة من الحضور فرفعوا النعش على اكتافهم ، وخرجوا به من الغرفة

فقال رجل الشركة :

ـ اذا اردتم ان تمشوا بالصندوق مربعة أو أكثر قبل ان نضعه في

العربة فانتم وشأنكم

واستصوب بعضهم الفكرة

فساروا بالصندوق

وسار الناس خلفهم

وتقدمت من الرجل وسألته عن المعنى من السير على الاقدام هـــذه الخطوات

فقال :

ـ يفعل الناس هذا ، عادة ، زيادة في قدر الفقيد

فقلت :

ـ هذا صحيح ..

ولم اجد على لساني الا هذه العبارة ..

وسار الموكب على هذا الترتيب

عربة الزهور ـ عربة الميت ـ المشيعون في السيارات

ووصلنا الى المقبرة

وكانت شركة الدفن قد تولت حفر القبر ، وانزلوا الصندوق فيه

وهالوا عليه التراب ، ووضعوا اكاليل الزهور

وكان حفار القبور يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه كما يقوم اي منا بعمله اليومي الرتيب

وهل يهتم حفار القبور بحياة ؟

وهل يكون هـــذا الدفين اعظم مـــن هؤلاء الذين نزلـــوا في التراب وتحولوا اليه ؟

وما يفعل رجل ازاء الملايين الراقدين رقدتهم الاخيرة هنا ؟

وما الموت في عرف من يلمسه كل يوم ؟
وما الموت في رأي الحق ؟
وما المرء ؟
انه قبر
انه اشارة الى قبر
وجاء الحفار ، وقال لي :
ـ هذا رقم القبر ، احتفظ به فان فقدته ولم اكن انا هنا صعب عليك تميزه بين بقية القبور
فقلت ، وانا اتناول منه الورقة :
ـ صدقت ، شكرا لك
وعادت الى فكرى فكرة الموت
ـ وما الموت ؟
انه المساواة التامة
ولكن اين المساواة ؟
في ردهة المقبرة الخارجية لحود من المرمر ، مبنية كالقصور وعليها من الزخارف الشيء الكثير ، وكل لحد يخص عائلة من العائلات الغنية، فامواتهم محافظ عليهم ، وهم لايحتاجون الى رقم من الارقام ليستدل عليه، كل بناية من هذه البنايات في مدينة الاموات تحمل اسماء الافراد الذين انتقلوا من هذه الدنيا
والى جانب هذه القصور الميتة قبور اخرى لايستطيع المرء ان يميزها عن بعضها الا بهذه اللوحة الصغيرة من الخشب مكتوب عليها اسم الميت وتاريخ ولادته وموته ، وقد كادت الايام تمحو السطور

اين المساواة ؟
افي الموت كذلك تفريق ؟
افي القبور طبقات ؟
والدود ؟
العل الدود نفسه يراعي الغنى والجاه والجبروت فيعن عن صاحبها
ويتحول الى هؤلاء الفقراء المغمورين ؟
رباه رباه !
ما اعظم اعمالك كلها بحكمة صنعت
وانتهى عمل المشيعين
فاخذوا يتوجهون الى الباب حلقات حلقات
وسمعت واحدا يقول لرفقائه :
ـ ارجوكم ان تسرعوا فقد ضربت لصديق موعدا وكاد يفوت الوقت
وقال ثان في حلقة ثانية :
ـ ليس اغلى من ثمن هذا المرمر الاسود
وكان ثالث يقص على رفقائه نكتة لاذعة وهم يبتسمون لها ويستزيدون
منها
وقال رابع ..
وقال خامس ..
واسرعت في الخروج من المقبرة
وانا اردد :
ـ كان ما كان ، كان لي صديق ..

* * *

بعد انقضاء خمس سنوات على مـوت صديقي التقيت باحـد الذين ورثوا ثروته فأخذ يحدثني عن المشاكل العديدة التي اضطر الى تذليلهـا للحصول على حصته ، وقال لي

ان بقية الورثة سرقوا الشيء الكثير من الاملاك التي تخصني ، ولو كان الفقيد صاحب نظر بعيد لوزع الحصص قبل موته ولكن ما العمل ؟

ـ عوض الله عليك خسارتك ..

ورددت بيني وبين نفسي

ـ كان ما كان .. كان لي صديق ..

كيف تمرست بالتدخين

السيكارة ؟

ان لارتباطي بهذه العادة سببا يختلف عن السبب الذى جعل غيري يرتبط بها

لقد سألت كثيرين ، فكان كل جواب ككل جواب تقريبا :

«ان صديقا الح علي بالدخينة الاولى ، فجاريته مكرها ، ثم بالثانية ، فاشعلتها راضيا ، ثم طلبت منه الثالثة ، واشتريت الرابعة فتعودت . ولو وفرت ما صرفته على الدخان لكان لي بيت مؤلف من طابقين ، فيا ليتني لم اجار صديقي ذاك منذ اول الامر، وياليته قدر ما كان في الحاجه من الضرر»

اما انا ..

منذ ثلاثين سنة او اكثر ، عرفت فتاة في مثل سني ، وهبها الله اوفر قسط من الجمال والخلابة والذكاء واللطف وما هي الا نظرة وابتسامة حتى طالعت اسمى كلمة في قاموس الحياة : الحب

وهمني ان اشرح لها وجدي ، ولم يكن الحديث معها سهلا ، فلا صلة على الاطلاق بين اهلي واهلها ، فنحن نقيم في البلدة ، وهم يقيمون تارة في دمشق ، وتارة اخرى في بيروت ، ولا «يطلعون» الى حيث نحن الا لقضاء فصل الصيف ورجعت الى البيت تلك الامسية ، وقد طالعت كلمة جديدة في قاموس الحب : اللوعة

غير ان العقبة التي وقفت في وجهي لم تحفل بها «هي» فرأيتها في اليوم التالي على باب المدرسة تنتظرني ولئن نسيت فلست انسى انهـا كانت ترتدى فسطانا من الحرير الابيض على اطرافه زركشة خفيفة ، وقد عقدت شعرها جدائل ولا يزال فؤادي ، كلما شاهدت فسطانا من الحرير الابيض ترتديه غادة هيفاء ، يخفق خفقانا غريبـا ، ويكـاد يدفعني الى الاقتراب منها ومكالمتها

وكانت لحظة لم يذق مثلها الا جميل بثينة

ودعتني الى بيتها بعد الانتهاء من درسي

وولجت الدار وأنا خجول ، فاستقبلتني بحفاوة ، وعرفتني الى والدتها مدعية انها دعتني لنراجع امثولة المدرسة ونتعاون على كتابة فروضها

وكان لها غرفة خاصة دخلنا اليها ، فأرتني كتبها ودفاترها ، وبسطت على المائدة الصغيرة قطعا من الحلوى البيتية ثم فتحت خزانة ، وانتشلت منها علبة سكاير ، وقدمت لي واحدة منها ، فتأملتها باستغراب ، وقد ظننت انها تدخن ، ولاح لها ما جال في خاطري ، فقالت :

ـ انا لا ادخن ، ولكني احب ان تدخن انت

فلم ار ندحة ، وقد سمعت منها ما سمعت ، من ان اتناول السيكارة واضعها بـين شفتي ، بعـد ان اشعلتها لي «وسحبت السـحبة» الاولى ، فاحسست كأن خنجرا محميا من العلقم يثقب حلقي ، وكأن جبلا يسد منافس صدري ، وتوالى سعالي ، فحاولت ان اخفي ما اصابني ، واقتربت من النافذة التي تطل على الطريق ففتحتها ، والسيكارة بين اصابعي والدخان ملء فمي فشاهدتني اذ ذاك عجوز ، كانت جارتنا ، تبلغ التسعين مـن اعوامها لاتقوى على المشي الا مستندة على عصاها ، فاستبعدت ان تطلع والدي

على القضية • وعلى فرض انها ارادت ان تذيع سري ، فانها لن تصل الى داري بفضل مشيتها البطيئة ، الا بعد ساعات

ولبثت عند فتاتي دقائق معدودة ،ثم ودعتها بعد الاتفاق على ان ازورها في اليوم التالي

وكان لي عم داره في الطريق الى دارنا ، فرابني ان اشاهده واقفا على الباب • فاقتربت منه ، فابتسم لي ابتسامة كلها تعنيف ، ومد يده الى جيبه فسحب منها محفظة السكاير ، وقال لي :

ـ تفضل ، لف سيكارة

فسألته مدهوشا :

ـ ومن قال لك ••

فقاطعني بقوله :

ـ عصفوره ••

فقلت :

ـ بل بومة خبيثة

ونصحني بترك هذه العادة السيئة ، وانا غير منتبه الى حديثه ، فقد كنت اتساءل في سري :

ـ كيف سبقتني تلك العجوز الكسيحة ؟

وقدرت انها لابد ان تكون قد اكتفت باخبار عمي ، وعمي لن يخبر والدي •

واقتربت من الدار على حذر ، فوجدت كل شيء كما عهدته ، فشكرت ربي ، وتقدمت ، وأنا التفت ذات اليمين وذات اليسار ، كمن يخاف الوقوع في فخ منصوب •

وصدق ظني ••

وشعرت بيد تقبض على أذني • هي يد والدي •

ومشى بي الى غرفة كنا نترك فيها الآلات القليلة الاستعمال • وامسك عصا غليظة وهزها في وجهي وهو يقول :

ـ انك لا تزال صغيرا على الدخان

فهممت بان افهمه ما جرى ، فلم يعبأ بي

وانزل الحبل المعلق في الجدار ، فشدني به شدا محكما ، وقال :

ـ اني تاركك هنا الى ما شاء الله

وأغلق الباب وخرج

لقد فات على هذه الحادثة ثلاثون سنة أو أكثر ، وضحت لي فيها أساليب عديدة عن تربية البنين ، ولكنني أكرر الآن اني لو كنت مكان والدي لما فعلت الا مافعل • فلم يكن بامكانه افهامي ـلصغر سنيـ اذى السيكارة ، وخير ما لديه لردعى هو تهديدى

وآلمني الحبل

وآلمني ـ أكثر من الحبل ـ اسراع تلك العجوز الى نشر الخبر ، فاشبعتها شتما

وللقارىء ان يسأل اذا كنت لاافتأ حانقا عليها •

كلا ثم كلا

ان غيظي منها تحول الى اعجاب بها • ولا ادل على ذلك من اني سعيت منذ ثلاثة اعوام باستقدام تلك العجوز لاضعها في معرض المواصلات الحديثة الذى اعده احد المعاهد العلمية الكبرى • وورد علي الخبر بانها انتقلت الى رحمة ربها ، فاسفت كل الاسف ، فقد كانت جديرة بان تربح

الجائزة الاولى ، فما التلفون ؟ وما التلغراف ؟ وما الراديو بالنسبة الى سرعتها ؟

واعود الى حالتي في الخزانة ، فاقول :

اني بقيت ساعة تقريبا ، كانت خواطرى اثناءها مقتصرة على حبيبتي. وخفت ان يدفعها غرامها بي الى زيارتي في بيتي ، فيفتح لها والدى باب الغرفة ، ويقول لها :

ـ هاهو بعفشه ونفشه ، تفضلي ادخلي

ثم فكرت في الخلاص من ذلك الوثاق ، ولم يكن الخلاص منه هينا ، فقد كنت مشدودا كاني طرد بريدي لا ينقصه الا الشمع الاحمر . واستغربت ان تتركني والدتي في تلك الحالة ، وهي كانت تتولى الدفاع عني أمام والدي في المحاكمات المهمة ، انما ذنبي هذا كان من الفداحة بحيث لاتقبل فيه شفاعة

لقد كنت في عهد الحداثة كما قلت ، ولكن كان علي مسؤوليات :

مسؤوليات تجاه رفاقي

تجاه دروسي

وتجاه حبيبتي

وبقائي في الغرفة مشدود الوثاق هو التغافل عن هذه التبعات

ورأيت ان اتظاهر بالبكاء ، وان ارفع صوتي ، فلابد من زائر لنا يسمعني ويجتهد في خلاصي ، فان النخوة لم تجف من الانسانية وهكذا كان

وانفتح الباب بعد ربع ساعة ودخل والدى يصحبه رجل بيض الله وجهه

وقال لي والدي وهو يفك الحبل :

ـ لقد ذهبت اليـوم بشفاعة هـذا الابن الحلال ، وكانت نيتي ان اتركك هناشهرا كاملا ، فاذا عدت الى السيكارة عاد الحبل اليك

وعزمت ـ فعلا ـ كما قلت لوالدى ان لا ارجـع الى الـدخان ، ولكن ..

ولكن تلك العبارة ، عبارتها :

« احب ان تدخن انت »

كانت تتمايل في ذهني

وقلت لنفسي

ـ اني لم احسن التدخين امامها اليوم ، فقد سعلت واحمرت عيناي وبللهما الدمع ، فما يضر ان اتمرن ؟

وكان في جيبي «ابو الخمسين» (قرش وربع) فاسرعت الى السوق ، واشتريت به سكاير «لعمي» ، وقصدت الى خارج البلدة وراء تله مـن التلال تحجبني عن اعين المارة ، ودخنت السكاير السبع

من البديهي ان يكون عذابي في السيكارة الاولى فادحا ، بيد اني احتملته راضيا . ان الحب يتطلب التضحية ، وما اهون هـذه التضحية المطلوبة مني ، واخذ عذابي يخف شيئا فشيئا ، فلم اصل الى السيكارة الخامسة حتى كنت استطيع ان اشرق الدخان بانتظام ، وشرعت اتفنن فتارة اضع السيكارة على اطراف اصابعي ، وتارة ينضم عليها ابهامي ، ومـرة ارسل الدخان رفيعا كانه خيط ، ومرة ثانية افتح فمي فيتدفق كانه جمهور خارج من حفلة عمومية وكنت اراقب نفسي مراقبة دقيقة لارى في اى موقف اكون اقرب الى ارضاء حبيبتي

وحان ميعاد ذهابي في اليوم التالي الى المدرسة ، فعرجت في طريقي على بيتها ، فابصرتها مستندة على النافذة تنتظر مروري ، فابتسمت لي وابتسمت لها ، واشارت بيدها اشارة مؤداها انها ترجو زيارتي بعد الانتهاء من الدرس ، فاجبتها برأسي اني ملب رجاءها بطيبة خاطر

وعلى الرغم من اني لم اكن امل من العلم ملل رفاقي منه ، فقد كانت تلك الساعات الثلاث التي انقضت علي يومئذ في المدرسة اطول ما عرفت من الساعات . ولكم اشتهيت ان تعتري المعلم نوبة عنيفة من مرض فجائي ، فيسقط على الارض جثة لاحراك فيها فاخرج قبل الميعاد . ولكم طلبت ان يتداعى جدار من جدران الغرفة التي كنا فيها ، فأتظاهر بالخوف ، وامضي الى حيث تنتظرني ذات العيون السود

وانتهى الدرس ، فركضت الى تلك الدار ، واستقبلتني فتاتي استقبال الدائن للمديون الذي ينوي دفع ما عليه ودخلت معها الى غرفتها ، وجلسنا على مكتبها الصغير ، وفتحنا كتابا من الكتب المدرسية واتت ،قبل ان تنتهي جلستنا ،بعلبة سكاير ،فتناولت واحدة منها ،واشعلتها وارسلت دخانها في الفضاء ، وكانت هي تحدق في معجبة بالخطوات السريعة التي قطعتها في ميدان التدخين

وهكذا قضيت مدة غير قصيرة ،وانا ازورها كل يوم ، وكل يوم تقدم لي سيكارة

وتمكنت هذه العادة مني ، فاصبحت اشترى كل اسبوع سبع سكائر «بابي الخمسين»

ولا حاجة الى القول انني كنت ابذل جهدي كيلا يطلع على سري احد ، فان كان والدى قد شد وثاقي في المرة الاولى ، فلا غنية له في المرة

الثانية من ان ينفيني الى جزيرة من الجزائر المقفرة ، وانا على استعداد لاحتمل ارزاء النفي ، ولكن كيف احتمل شقاء البعد عنها ؟

لاتستغرب ايها القارىء ان تطلب مني تلك الفتاة ان ادخن، ان طلبها ليس شذوذا

لقد كانت تعتبر التدخين من مظاهر الرجولة ، وكانت — على سذاجتها وحبها لي — تتمنى ان اصبح رجلا «باسرع ما يمكن» لتتوثق الصلات بيني وبينها

هذا ما كانت تبتغيه غريزتها دون ان تشعر به شعورا واضحا

ان لدي على ذلك ادلة لايعلق بها الالتباس ، ليس هذا مجال ذكرها

هكذا تعلمت التدخين

وكانت كل سيكارة ادخنها عبارة من عبارات الوجد تهمس بها في سمعي ذات العيون السود

اني كنت اعلم ان التدخين يؤذيني ، وكنت أرضى باذاه اكراما لها

لقد كانت هي تحبني مدخنا . وكفى

★ ★ ★

وضرب الدهر ضرباته بعد انقضاء سنة تعارفي بها ، فتركت الوطن وتوجهت الى العالم الجديد ، ولاحقتني براهين حبها واثار وفائها الى كل بلــدة

وبلغت سن الرشد ، فكاتبتها لتضرب صفحا عن تعهدها لي بانتظار عودتي ، وتظاهرت بنسيانها

وخطبها خاطب ، فرضيت به يائسة من رجوعي الى الوطن

وعلمت انا ذلك فحزنت وفرحت

حزنت غيرة من زوجها

وفرحت لاني ظننت ان رواية غرامنا قد انتهت بزواجها

وعزم زوجها بعد اشهر على السفر الى اميركا ، وكان لـه انسباء اغنياء في البرازيل ، فأبت ان ترافقه الا الى الارجنتين ..

وبينما انا يوما ، في ادارة جريدة كنت ارأس تحريرها ، اذا بالهاتف يدعوني ، واذا بصوتها ..

يا ذات العيون السود ؟

ليست هذه قصة حبنا . ان لحبنا قصة ستكون خير ما انتجته هذه البراعة . ان لحبنا قصة لا احب ان اكتبها قبل ان ينضج ادبي اتم النضوج

يا ذات العيون السود ؟

انا لازال اذكر سائر عباراتك . وما من قوة على وجه الارض في مكنتها ان تنسيني مواقفك

يا ذات العيون السود !

ان السعادة التي ابحث عنها ليست في الجاه ولا في الثروة ولا في الشهرة

انها في مشاهدتك

فكيف ..

ليست الكيلومترات هي التي تفصلني عنك ، ولكن يفصلني عنك .. حرصي على سمعتك

يا ذات العيون السود ..

* * *

الانسان عبد الوهم ، وان شئت ضحيته

وما من عقل الا وللوهم سلطان عليه ، قويا كان او ضعيفا

وعندي ان جميع المهن بلا استثناء يحتاج اصحابها الى معرفة ما للوهم من التأثير على النفوس • غير ان مهنة الطب واكثرها حاجة الى هذه المعرفة • وقد يعجز الدواء عن الشفاء ، فينوب عنه الايحاء ، الاسى الى الى المريض ان برءه سيتم دون عناء

منذ اعوام ثمانية اصيب صديق لي برشح لم يكن بالخفيف الذي يترك للطبيعة علاجه ، ولا بالثقيل الذي يفتقر الى الادوية المتعددة ، واحب ان يستشير طبيبا ، وطلب مني مرافقته

وكان الصديق مثلي يعتقد بالطب •• بتحفظ

وتم الاتفاق بيني وبينه على ان نفتح سجل «التلفونات» في الصفحة المخصصة للاطباء ، ثم يغمض احدنا عينيه ، ويمد اصبعه على اسم من الاسماء

ودخلنا الى مستوصف الطبيب الذى اختاره لنا الحظ ، وكان حافلا بالادوات الناصعة البياض التي تنثر على القلوب الرهبة

وجاء الطبيب وهو في الخمسين من عمره تقريبا ، وقد ارخى طرف لحيته ، ووضع على عينيه نظارتين

ولم يشأ ان يلقي علينا التحية ، احتقارا على ما يظهر ، فحييناه نحن فمد يده لمصافحتنا باشمئزاز ثم تأملني ،بغضب كأني سارق بيته أو قاتل أبيه ، وقال :

ـ انت مصاب بفالج ، اذا تركته اودى بك الى القبر

فقلت له :

ـ ان المريض رفيقي لا انا يا حضرة الطبيب

فقال دون ان يعتذر :

ـ لقد ظننتك انت

والتفت الى رفيقي وسأله عما يشعر به ، فشرح له اعراض الداء ، والطبيب يهز راسه لدى كل عبارة ، ويحول وجهه الي كسن يريد ان يقول :

ـ عليك ان تهيء لصديقك عربة الدفن

ثم سأله الطبيب :

ـ اتدخن ؟

فاجاب صديقي بلهجة لاتخلو من الخجل :

ـ نعم

فعاد الطبيب الى السؤال :

ـ اتدخن كثيرا ؟

فقال رفيقي وقد تفاقم حياؤه

ـ نعم

فعاد الطبيب مرة ثالثة الى القول :

ـ كم سيكارة في النهار ؟

فاجاب رفيقي مترددا :

عشرون تقريبا

فصاح به الطبيب صيحة الملسوع :

ـ ماذا تقول يا هذا ؟

ثم اعرض عني وعنـه ، وشبك اصابعه وراء ظهره ، وراح يذرع المستوصف جيئة وذهابا يردد :

ماذا تقول ؟ عشرون سيكارة في النهار • ؟ ان شباب هـذا العصر لايستحقون الهواء الذى يتنشقونه • حبذا لو اتيح لـي ان اضعهم جميعا في سجون مظلمة لايخرجون منها الى الابد • عشرون سيكارة في النهار ؟ ليتني استطيع ربطهم كلهم الى بعضهم ، واثقال اعناقهم بالاحجار الضخمة، وطرحهم في البحر طعاما للاسماك • عشرون سيكارة في النهار ؟ ان شباب اليوم ليسوا شبابا ،وانما هم هياكل من العجين ، انما هم دمى للاستعراض• ماذا عساهم يفعلون لو دعاهم الوطن الى الدفاع عنـه ؟ افي امكانهم ان يحتملوا حياة الخنادق ؟

وطال تعنيفه • وكان يردد هذه العبارات وامثالها بصوت عال دون ان يحفل بنا كأنه يلقي محاضرة على جمهور وكان صديقي يلتفت الى وانا التفت اليه حين يصبح ظهر الطبيب الينا ، ونقلب شفاهنا استفهاما عما أصاب حضرته وتعالت لهجته ، وباتت ، عباراته معجونة بالسباب والشتيمة لنا ولسائر الشبان

وخفت ان يترجم عواطفه الى لغة العمل ، فاستغفلته وتناولت من احدى الموائد مبضعا طويلا حادا ، ووضعته في جيبي ويدي عليه ، واشرت الى صديقي اشارة حملته على ان يحذو حذوى ، وكان نصيبه مقصا من المقصات المعقوفة

وتعب الطبيب أخـيرا من المشي ، فتنهد تنهيدا عميقـا ، وواجـه صديقي قائلا :

ــ اتدخن انت عشرين سيكارة في النهار ؟

فهز صديقي رأسه هزة الايجاب كالنادم على جريمة

فقال الطبيب :

ـ اتدخن عشرين سيكارة في النهار ، وتدعي انك تدخن كثيرا ؟ ماكنت تقول لو كنت مكاني ؟ اني ادخن خمسين سيكارة كل اربع وعشرين ساعة ، ومع ذلك فلا اعتبر نفسي من المدخنين

فتنفس صديقي ، وتنفست انا الصعداء

وقال الطبيب بعد صمت قصير :

ـ دخن ما تشاء ، فالدخان يهدىء الاعصاب ، ويروق الدماء ويسهل الهضم ، ويزيد النشاط ، ويقوى الاسنان • اما الرشح الذى تعانيه فخير علاج له هو ان تبدل جنس الدخان الذى تشربه • انك تدخن النوع الاشقر ، وانا اصف لك النوع الاسود ، واذا كان في وسعك ان تدخن من ماركة «النجمة الزرقاء» ضمنت لك الشفاء في الحال

وخرجنا من ذلك المستوصف بعد تلك النصيحة الطبية الغالية •••

ورأيت ان اكون عند حسن ظن الطبيب ، فامسيت ادخن اكثر من اربعين سيكارة في النهار بعد ان كان العدد الذى ادخنه لايصل الى العشرة

ولكن الشكوك اخذت تراودني بعد ايام

ايكون هذا الطبيب مجنونا ؟

ايكون صاحب نظريات جديدة ؟

وبحثت عنه

فتجلت لي الحقيقة :

ـ ان حضرته صاحب معمل السكاير التي ماركتها «النجمة الزرقاء»••

★ ★ ★

كنت ، ليلة ، في دار صديق ، فقال لي وقد ابصرني ارتشف الدخان بعد قهوته ، بلذة :

ـ لماذا لاتترك السيكارة ؟
وكان سؤاله فجائيا ، لاعلاقة له بما نحدث ، فقلت :

ـ انني لم اجرب ، واغلب الظن اني لن اجرب ، لا لاني ضعيف الارادة بل لاني ارفض ارهاق نفسي بحرمانها من هذه المتعة ، ولااطيق النظر الى الذين يدخنون كما ينظر الجوعان الى الجالس في مطعم ، وامامه ألوان عديدة من الاكل

فقال لي أحد الحاضرين ، وكانت معرفتي به بسيطة :
ـ اذا كنت ترغب في ترك السيكارة ، فانا ارشدك الى مسلك سهل، تبعته أنا فأدى الى أفضل النتائج ، وقد دلني عليه نسيب لي

فلم اهتم بكلامه كثيرا ولكن اللياقة دعتني الى وصل الحديث ، فسألته :

ـ وما هو ؟
فاجاب :
ـ سأقص عليك الحكاية باختصار
ثم عدل جلسته على الكنبة ، وتابع قائلا :

ـ «كنت من المدمنين على التدخين ادمانا يسمى جنونا ، وقد اصابني منه التهاب في الحنجرة وصفه الطبيب بانه تمهيد لداء السرطان • وحذرني من السيكارة ، فجربت الاغضاء عنها فعجزت ، وزارني مرة نسيب لي مطلع على امري ، فاقترح علي ان اصحبه الى عراف هندى ، يؤكد عنه الذين استشاروه انه يأتي بالعجائب

كنت اشبه بالغريق الذى يستمسك باية خشبة ، فلم اعترض على اقتراح نسيبي مع عدم ايماني كثيرا بالكهانة والسحر ، وقصدنا العراف

الهندي وبسطنا الحالة له ، فافادنا ان علاجها من اهون ما يكون ، وسلمني بعد لحظات انية فيها سائل أحمر اللون ، تقاضى ثمنها مبلغا ضخما ، واوصاني بان اشرب منها جرعة كلما عنت السيكارة على بالي وجربت الجرعة الاولى ، فزالت عني في الحال رغبتي في التدخين ، وصرت ، كلما حدثتني النفس ، اعالجها بذلك الشراب ، ولم ينته ما في الانية حتى كنت قد كرهت السيكارة ، وغدوت انفر من رائحتها الكريهة

وكان الحاضرون قد اصغوا الى الحديث ، فشرعوا يعللون قوة ذلك السائل تعاليل مختلفة ، واتفقوا اخيرا على ان الهند التي كانت مهد حضارة قديمة لايستكثر على عالم من علمائها ان يقوم بمثل هذه الخوارق ولم يكتف صاحب الانية بما تقدم بل روى لنا بعض عجائب ذلك الهندى ، اقلها شأنا انه شفى كثيرين بالتعاويذ والطلاسم من امراض استعصت على امهر الاطباء

وسرى شيء من اقتناع صاحب الانية الي ، فهززت رأسي ، وعجبت لخمول اسمه على ماهو عليه من الجبروت فاجاب محدثي :

ـ لاشك ان ذلك يعود الى اعراضه عن الشهرة ، فمهمته في الحياة كما تلطف وصرح لي ـ هي تخفيف شقاء الانسانية ، ناهيك عن ان الشرطة تلاحقه ، بعض الاحيان ، يحرضها عليه الاطباء الذين يلقون منه مزاحما ليس في وسعهم مجاراته ثم نزع من محفظته بطاقة كتب عليها عنوان العراف وسلمني اياها

* * *

وتوجهت في اليوم التالي الى دار ذلك العالم الهندي ، يقود خطواتي الفضول اكثر مما تقودها رغبتي في السائل العجيب

وطرقت الباب ، ففتحته حسناء في ريعان الشباب ، دعتني الى الدخول فالجلوس ، وكانت الصاعة انيقة الرياش ، مشغولـة جدرانها بالكتابات الهندية

وعادت الفتاة بعد ثوان ، وقدمت ورقة لاسجل عليها اسمي وكنيتي وعمري ، فكتبت اسما مستعارا وعمرا مكذوبا وغابت ثواني اخرى

ورجعت لترجوني ان ارافقها

وفتحت بابا في صدر الصاعة يؤي الى ممر مظلم ، يبلغ عشرين خطوة في اخره باب صغير ، فتحته ، واشارت بيدها ان ادخل ، ورجعت ادراجها

كانت الغرفة التي ولجتها صغيرة الحجم ، مغلقـة النوافذ تملأهـا رائحة البخور ، فيها بلورة مغلقة بقماش من الحرير الاحمر يغمرهـا بشيء لا هو بالنور ولا هو بالظلام ، وهي مفروشة بالسجاد الثمين ، وفي وسطها مائدة صغيرة عليها جمجمة ادمية ، وقد علق على جدار من جدرانها سيف قبضته بهيئة الثعبان ، وعلى الجدار المقابل هيكل تمساح صغير ابرز ما فيه انيابه

وفي صدر الغرفة دكة عالية مغطاة بستور من المخمل المواج

انها غرفة سحر !

ودرت بنظري لابحث عـن كرسي ، فـاذا بالنـور يخفف ، واذا بالستور تزاح ، واذا على الدكة رجل جالس القرفصاء عليه جبة فضفاضة ، وعلى رأسه منديل وهو ذو لحية بيضاء طويلة ، وحواجب سوداء كثيفة وفي كرة من الزجاج ، والى جانبه سراج ضئيل الفتيلة

هذا هو العالمالهندي !

هذا هو الساحر الاكبر
وامرني ان اجلس على الارض قبالته
فجلست
وامرني ان احدق اليه بامعان
فحدقت
وتاملت محياه جيدا ، فهتفت :
ـ الست انت عبدالله ؟
فزوى ما بين عينيه ، وقال :
ـ الست انت ؟
وكانت مصافحة ودية بيننا

وجلس على الدكة يستفسر عني ، واشعل النور ، وترك لحيته المستعارة على المائدة ، وضغط زرا كهربائيا ، فجاءت الصبية التي استقبلتني ، فأمرها بان تغلق باب الدار ، وان تعد الغداء

لايدهش القارىء

لقد تركت الوطن على نفس الباخرة التي كان مسافرا فيها هو ، وتمكنت عرى الصداقة بيننا اثناء الطريق . ثم وصلنا الى مقر هجرتنا ، فسافر الى داخل البلاد حيث يقيم قريب له ، وبقيت انا في العاصمة

وسألته ، وانا اضحك ، عن علومه وعن سحره وعن «هنديته» ، فضحك طويلا ، وقال :

ـ لم يرق لي العمل في بيت قريبي ، فقد كان مضنكا ، وكانت الاجرة خفيفة ، وما زلت افكر الى ان اهتديت الى هذه الحرفة فبدأت فيها كما يبدأ المرء في كل عمل . وكنت في أول عهدي اتقاضى اجرا

زهيدا بدل الزيارة ، وانا الان اقبض اجرا باهظا • اما الادوية فأثمانها حسب جيوب المرضى ، وكيف وصلت انت الي ؟

فاطلعته على القصة

فقال :

– مسكين ذلك الرجل هل ترك الدخان من صحيح ؟ لقد كان المشروب الذى اعطيته اياه فيه قليل من «صبغة اليود» ، فانظر ما يفعل الوهم

ثم ابتسم وقال لي :

– اتريد انت انية ايضا ؟

ودخلت الصبية ، وهي خادمته فاخبرته ان المائدة معدة ••

★ ★ ★

كل شيء على وجه الارض – حتى الشر نفسه – فيه شيء من الخير فان لم تجده فالذنب عليك لانك لم تحسن البحث عنه

السيكارة ؟

اليست كلها شرا ؟

اني وجدت فيها وجها من وجوه الخير

اني درست نفسي من خلال التدخين ، ثم انصرفت الى درس الاخرين

قد يبدو هذا الامر غريبا ، وما هو بالغريب

كنت اراقب كيفية تدخيني في مختلف الحالات

مثلا

كان يصدف ان اغضب ، فتطلب نفسي سيكارة ، فاشعلها ، ثم التفت

فجأة الى الطريقة التي ادخن فيها وانا غضبان ويصدف ، مرة ثانية ، ان ينتهي الى خبر مؤسف ، فاراقب الطريقة التي ادخن فيها وانا حزين

وأصبحت لطول ما دخنت وراقبت ، ادرك من موضع السيكارة بين اصابعي وارتفاعها الى فمي ان كنت راضيا او حانقا او خائفا او عاشقا او على وشك ان اعشق ، الى غير ذلك من الخوالج

واصبحت لطول ما راقبت الناس وهم يدخنون — اميز في الحال الكريم منهم والبخيل ، والصادق والكاذب ، والخيالي والواقعي

وقد تراهنت واحد الاصدقاء على ان اقضي واياه يوما كاملا ، فاطلعه على اخلاق من يشاء بمجرد رؤيتي اياه وهو يدخن ، وكان الشرط بيني وبينه ان ادفع له خمسة ريالات عن كل من تخيب فراستي فيه ، وان يؤدى لي ريالا عن كل من احزر شمائله من سيكارته

ودرسنا ، او بكلمة اصح درست في ذلك النهار عشرين رجلا ، فربحت من صديقي تسعة عشر ريالا ، وربح مني خمسة ان لكل رجل طريقة في التدخين تختلف عن طريقة الاخر بل لكل حالة من حالات الرجل الواحد شكل من اشكال التدخين ، ولو انتبه القضاة الى هذه الناحية ، لبدت لهم اثناء المحاكمات غرائب من صدق المتهمين او من كذبهم

ونويت مرة ، ان اضع كتابا عن فراسة التدخين ثم عدلت ، فمن هم هؤلاء الذين اكابد من اجلهم هذا النصب كله ؟ اني لن اعدم بعد الانتهاء من كتابي ، يؤكد ان فيه كثيرا من الاغلاط ، او من يثبت ان المؤلف لا لزوم له

نعم عدلت عن الكتاب ، وعدلت عن درس اخلاق الناس من تدخينهم ، وندمت على الوقت الذى صرفته في ذلك ، فما هي الفائدة التي

انالها يا حضرة القارىء الكريم اذا تبين لي من سيكارتك انك رجل غير كريم ؟ ..

* * *

كنت الى سنوات قليلة خلت ، في طليعة الذين يعتزون «بالثبات» فان بدا الرأى لي تشبثت به تشبث البخيل بالدرهم واعرضت عن الاصغاء الى ما يخالفه ، وقد استغل المتصلون بي هذا الضعف استغلالا زاد في ضلالي

ولكن الايام ، او كوارثها ،صقلتني ، ففتحت عيني على ما كنت ارتكب من خطأ ، وتحقق لي ان «الثبات» على رأى هو العقم والجمود وانا ثابت على رأيي هذا ، هيهات ان يزعزعني عنه رأى اخر

لنفرض ان لك نظرية في «راحة الحلقوم» هي اصح النظريات ، افبامكانك ان تبقى عليها مدى عمرك ؟

ان الزمن ، ان نضوج ذهنك مع الزمن ، سيوسع امامك افاق هذه النظرية ، سيلفتك الى نواح عديدة منها لم تكن تعني بها قبلا

فليس عار عليك ان تغير رايك ، بل العار ان تبقى عليه ، لان تغيير الرأى لابد معه من كد الذهن للاستقرار على اخر

انك لاتفهم الا بالسياسة ، وساقدم لك العبرة منها :

الا تشاهد ان الدول تعدل خططها حفظا لكيانها ؟ ، وان البلدان التي «تثبت» على راى واحد لايتبدل ولا يتحور ، انما تحفر قبرها بيدها ؟

كنت ، الى سنوات قليلة خلت ، اعتقد ان الوجود لامعنى له لولا اشياء ثلاثة :

الشعر

والمرأة

والسيكارة

ثم نمت ثقافتي ، فماذا نتج ؟

كنت اعتبر الشعر نعمة من نعم الرحمن ، ولا اتمثل وجودا خاليا من الشعر ، بل لا اتمثل انسانا خاليا من الميل الى القوافي ، وكان لدواوين الشعراء عندي منزلة لا تعادلها منزلة ، وكنت لا اطالع القريض الا حين يخلو بالي من خواطر الكدح كاني المتعبد التقي الذي لا يدخل الى المعبد الا عقب ان يترك على الباب سائر شواغل الحياة

ولبث على هذا الرأي الى ان عرفت الشعر الرمزي ، والى ان عرفت زعيما للشعر الرمزي

انه شاب لطيف المعشر ، كريم النفس زكي الجنان

ولكنه يريد ان يكون شاعرا على الرغم مني ومنك ، وهذه هي البلية الكبرى

انه شاب غيور تطغو الابتسامة على محياه

ولكنه يظن انه فيلسوف كميخائيل النعيمي ، وانه نابغة كأمين الريحاني ، وانه عبقري كطه حسين

هذه هي الضربة العظمى

وكثيرا ما سعيت لاصرفه عن الشعر ، فلم افلح

ولقد كتبت عنـه عدة مقالات ، هـي وحـدها كافيـة لتخليـده فلم يقتنع بهـا

وتركته اخيرا على هواه ، وتركت له تقديسي للشعر ، واجلالي للشعراء ، فخسرت ، كرمي له ، دعامة من دعائم سعادتي في الحياة ..

والمرأة ؟

اوضح المقام الذى تحتله في قلبي ؟

هاهي دواويني وكتبي انها تكاد تكون وقفا على وصف محاسنها ، وشرح عواطفها

واذا كان الحظ لم يسعد القارىء بمطالعة اي كتاب لي ، فليعلم اني كنت اكون سائرا في الشارع ، فتمر بي فتاة فأقف ، لاتهمني سرعة المهمة التي علي قضاؤها ، وما ازال اسبح ربي على خلقته حتى تمر بي فتاة ثانية ، فابدأ بالتسبيح من جديد ، وهكذا كنت اقضي معظم ساعات النهار مسبحا ربي

لايزعم القارىء ان كل شاب في مثل سني يفعل ذلك ، لقد كنت احب القبيحة كذلك ، لا اشفاقا عليها كما قال الشاعر بل لاني كنت اقتفي مكامن الجمال فيها ، فما من امرأة الا فيها سر من الاسرار الحسن لايلمحه الا الراسخون في هذا العلم ، وانا في طليعتهم

وظللت مفتونا بالجنس اللطيف الى ان تعاطيت التجارة

ليتني لم افعل

فقد تداعى مركزهن في قلبي

ضع نفسك مكاني

انت جالس في «دكانك» تدخل عليك امرأة ، وتطلب منك ابريقا ، فتقدمه لها ، بين يديها ، وتأخذ بالصاق العيوب فيه ، وكلما ارتجلت له عيبا ، اسرعت فدافعت عنه دفاع المستميت

ثم تطلب منك غيره فتقدمه لها فتفعل بهذا الابريق البرىء ما فعلته بزميله السابق

وما تبرح تطلب منك غيره الى ان توشك تزحق روحك

ويعجبها ، بعد ساعة ، ابريق ، فتسألك عن الثمن ، فتقول لها عشرة ريالات .

فتضحك حضرتها ضحكة كلها بلاهة

فتفتش عن النكتة التي اضحكتها فلا تجدها ، وتسألها عن سبب ضحكتها ، فتقول :

ـ ان صاحب الدكان الذى يقيم في المربع الاخر عرض عليها مثل هذا الابريق بخمسةريالات

وتكد انت ذهنك ، فتذكر ان هذا الابريق ثمنه تسعة ريالات بالجملة نقدا

وتعمد الى اقناعها مقدما لها من البراهين ما يكفي لتمدين قبيلة ، فلا تقتنع :

اقول ـ بعد ان تقابلك المرأة هذه المقابلة اتستمر على اعتبارها مصدرا للوحي والالهام ؟

ايتها التجارة سأهجرك في اول فرصة ، فقد جملت فؤادي اشبه ما يكون بافئدة الناس

اما السيكارة فقد اضمحل مقامها عندي على اثر حريق ذهب ضحيته صديق عزيز لي

وخلاصة الحادث ان ذلك المسكين كان يعمل في احد المخازن ، وكان مثلي مولعا بالتدخين ، ولكنه لم يكن يدخن امام معارفه ودخلت عليه مرة صاحب المحل ، فرمى بسيكارته على الارض ، قذفها برجله

واراد القدر ان تصيب السيكارة كدسة اوراق ، وما هي الا دقائق حتى شعر الصديق المذكور باللهيب فاسرع الى اطفائه

وأراد القدر ان تكون الى جانب الورق قنينة فيها نفط ، فالتهب في نفس اللحظة التي انحنى لابعادها ، فاصاب كسير الزجاج وجهه

وجاء رجال الاطفاء ، انما النار كانت قد التهمت سائر ما في المخزن

وقال الاطباء بعد يومين ان صديقي مات متأثرا بجراحه البليغة ، واكاد اقسم وانا اخبر بشعوره الرقيق انه قضى منتحرا ..

* * *

ارتفع في عهد من العهود سعر الدخان ، فاعلنت انه اذااستمر على ارتفاعه اقصيت السيكارة عني نكاية باصحاب المعامل .

واتصل الخبر برجل تجمعني به صلة بعيدة من القرابة ، فقدم لتهنئتي كأن تركي السيكارة يسير بالانسانية خمسين عاما الى الامام

ومضى يحرضني على تركها كما يحرض القائد جنوده على الاستبسال في معركة يتوقف عليها مصير دولة

وشئت مداعبته ، وكان رجلا بسيطا ، فقلت له :

ـ وما هو النفع الذى احرزه اذا تركت السيكارة ؟

ولم يكن قد استعد لمثل هذا السؤال ، فحار بما يجيب ، ولم يجد في دماغه الا هذه العبارة :

لاشك انك ستسمن

فعذرته في نفسي على جوابه ، وتظاهرت بالاقتناع

وودعني

فعدت الى تقليب جوابه

ـ لاشك اني ساسمن

ـ وما هو النفع الذى احرزه من سمني ؟

آن وزني الآن لا يزيد عن خمسين كيلو ، ولنفرض – جدلا – ابي غدوت مائة كيلو ، فماذا يكون ؟

اصبح اسعد ؟

ايزداد ذكائي ؟

ايتضاعف قسطي من معرفة الحياة ؟

اني اشعر بالتعب من هذه الخمسين كيلو التي احملها وامشي بها • فما تكون حالتي اذا اضطررت الى حمل مائة كيلو ؟

وانسان ؟ اتأثيره بماء لميه من الدهن ؟

وما كانت تكونقيمة غاندى لو كان الناس بالوزن ؟

ثم وضع خيالي صورة جديدة للانسانية

تمثلت الرجل المعتدل وزنه خمسمائة كيلو

والمرأة التي يصح ان نسمي رشيقة ثلاثمائة كيلو

وكان لابد ان يتبع هذا التغيير في الوزن تغيير جوهري في سائر الاشياء

فالمنازل تحتاج الى ثلاثة اضعاف ما تشغله الان من المساحات • ما في ذلك مبالغة : ان حذاء الرجل العادى متر او اكثر وعلى هذا قس

تمثل هذه الانسانية فما انقلابها بالمستحيل

لعلك تجهل انه كان في بيروت جمعيـة ذات شأن يجـرى انتخاب رئيسها كل سنة ، بالميزان فمن رجحت به الكفة فاز ، وكان الذى ينوى ان يترأسها يحشو امعاءه ، طول السنة ، بالمأكولات الدسمة

لقد سمعت بهذه الجمعية فلم اصدق مثلك مع ان عددا من أعضائها احياء يرزقون ، واستنطقهم فلم ينفرا الخبر ولعلك تجهل انه كان فياسبانيا،

التي حكمناها اربعمائة سنة ، امير ثارت عليه رعيته وخلعته بحجة انــه سمين لاتليق به الامارة

لاتبتسم

طالع كتاب «تاريخ اسبانيا المسلمة» للاستاذ فالنسيا ، فثمة اسم الامير تمثل هذه الانسانية

واشكر ربك على انه خلقنا على هذه الصورة اللطيفة

فلو كنا كالافيال

لكانت الحركة بطيئة

ولكان التقدم هزيلا

وانقضت علي مدة طويلة كلما حدثتني النفس بترك الدخان ، تمثلت الانسانية كما ذكرت فاشعلت السيكارة لتطرد عني هذه الصورة الخيالية ..

دار الحرية للطباعة
(مطبعة الجمهورية)
بغداد ١٩٧٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨١٨ لسنة ١٩٧٢

[illegible] حسـام خضر اليـاس الكاتب))) +

÷÷÷ خريج كلية اللغات الملغاة ÷÷+



السعر ١٠٠ فلس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨١٨ لسنة ١٩٧٢

دار الحرية للطباعة - مطبعة الجمهورية - بغداد

١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م